الايمان بالحياة

☆

بعد الجولة الاولى من معركة فلسطين، وبعد فترة النقمة والذهول والارتباك، بدأنا نتلمس الاسباب الظاهرة للكارثة:
— تملك الاجنبي لمساحات وافرة من ثروة العرب فسياستهم هي حتماً سياسته.

— تآمر الدول الاستعمارية وتآزرها لفرض وتدعيم سيطرة شركاتها واحتكاراتها في الشرق العربي، فمعركة فلسطين هي معركة البترول والاسواق التجارية. — جهل القادة العرب وانانيتهم وضعفهم وتعاونهم الخفي والظاهر مع الرأسمالية الدولية الاستعمارية وعمالها. فالدول الاستعمارية التي حذقت فنون الاستعمار واتقنت مهنة تسيير الجماهير وقيادة الجماعات زرعت الشرق بعمالها المستترين، وقد نراها في غد قريب تبدل قادة الساعة بغيرهم من الرجال المعارضين الذين لا يقلون تعلقاً بها من هؤلاء، وتخاذلاً.

غير ان هذه الاسباب الظاهرة قد لا تشكل عناصر ايجابية لحل المعضلة.. فمن بواعث الامل ومما هو جدير بالملاحظة اننا بدأنا نتحسس في اعماقنا بالاسباب الجوهرية والخفية للنكبة: — الوضع الاجتماعي والاقتصادي المتأخر في الدول العربية: البداوة والاقطاعية والملكية الكبيرة والبورجوازية المالية المسيطرة والتي تستغل الوطنية والقومية لبلوغ اهدافها. — وضع المرأة الجائر — الجهل المطبق، فالمعرفة تحرر بجد ذاتها. — الحس الديني الرجعي الذي يجنح في الاغلبية الساحقة الى التعصب الطائفي الذميم والى انقباض الذات على نفسها والى التواكلية والقدرية التي تغلب في المجتمعات البدائية.

فأول واجب علينا ان نتبرأ من هذه المعتقدات الجاهيرية الجامدة كما تبرأ منها الانجيل والقرآن وكل كتاب وكل رسالة.

خطيئتنا الكبرى هي اننا نتطلع دائماً الى الماضي الذي جعلنا منه صنماً في هيكل الاصنام الذي نتعبد.

لن تستطيع الشعوب العربية والشرقية ان تنهض وان تخلص اذا لم ترتفع بالامل وتتوق بالنزعة الى ما فوق الاوثان وما هو فوق المعتقدات والقوميات والعنصريات والتكتلات والى ما هو فوق التعلق بالماضي وآثاره وبالحضارة الغربية وتقليدها وتجديدها، والى ما هو اثمن من التراث ومن الفلسفة والفن والعلم — لا يعادله الا الوحي والاشراق ولولاه لما انعم بهما الله — وهذا الشيء هو الايمان بالحياة.

والايمان بالحياة هو الايمان بالتطور: فلولا التطور لما كانت الحياة.. التطور على اطلاقه: تطور الكون والجماد والمادة الحية والانسان والجماعة بجميع عناصرها الروحية والمادية.

في نهاية حديث صغير في جامعة بيروت الاميركية اشرت الى «ان المجتمعات البشرية بقيت مدة آلاف السنين لا يتعدى تطورها مرحلة معينة: النظام القبيلي ثم يتلوه النظام الاقطاعي ويتلوه نظام ارباب الحرف والملكية الصغيرة، ثم تعود الحلقة الى النظام الاقطاعي وهكذا دواليك.. واذا بالآلة وبالصناعة الحديثة وما رافقها من تغيير في المجتمع البشري — اهمه خلق العمالية — اذا بالآلة تحطم هذه الحلقة المفرغة، فيكمل التطور البشري طريقه في سبيل بتول. واذ هناك سبق للمؤسسات الاقتصادية ولاحوال الجماعة التكنية على الانظمة الحقوقية والسياسية والاجتماعية القائمة، واكثرها وليد القرون الوسطى وبعضها من مخلفات العصر الحجري.

«علينا ان نقبل بالآلة وبمستلزماتها العملية وان نتفهم اهداف تطور الآلة وتطور العنصر البشري، وان ندخل بجرية في سياق هذا التطور، مزودين بالمعرفة وبالارادة فنهدم ما نتردد اليوم بهدمه — اي النظام البورجوازي الرأسمالي المحتضر — ونبني بيت الجماعة اي «البيت الذي تسكنه السعادة البشرية»! والا فستخلق الآلة مجتمعاً ودولة على شاكلتها هي اشبه بخلايا النحل منها بمجتمع بشري».. والا كما قال غاندي: «فلا فرق عندي بين عصر الفولاذ وبين عصر الحجر».

ان كلمة الساعة هي في لبنان (وفي البلدان العربية) وفي كل بلد من بلاد العالم: علينا ان نكون في مقدمة التطور فنصيره ويصير منا..

كمال جنبلاط

منازل رلكه في باريس

بقلم الدكتور عبد الرحمن بدوي
مدرس الفلسفة بجامعة فؤاد الاول

●

« الك يا منازل في القلوب منازل » .

نعم ولاهل الفكر في قلوب المعجبين منازل لا تقل في تأثيرها روعة عن منازل الاحباب . واي عجب في هذا فالامر امر بواعث على التجارب الحية العميقة ايا كان موضوعها . وآية ذلك عندي ، يا سلوى ، انني ما ادخل مدينة كانت بها منازل لاحد من شيوخي الروحيين هؤلاء الا طوفت بهـا في خشوع رهيب يواكبه احساس عامر بأنبل الذكريات ، وسعيت في آثارهم التمس انفاسهم الحارة يعبق بها كل ركن أووا اليه . ولا اكاد استشعر فارقاً بين حجي اليها وبين تطوافي بمنازل غرامنا المشترك ، ايها الحبيب النـاصع العينين . هكذا فعلت لما ان حججت الى وادي الانجادين وجليت ببصري الذاهل في مشاهد نيتشه بين سلزمـاريا وسورلاي ، وهكذا ايضاً شعرت وانا اصّاعد الى ربوة تريش نشداناً للالحان المنبعثة من روح فجنر في تلك الجنة الناعمة قرب لوتسرن . ومن هنا بدأت افهم معاني الحج في الدين .

وفي باريس ، منازل من له في قلبي كل منزلة ؟

منازل ذلك الغريب التشيكي الذي كان خـير من تغنى بباريس لانه كان اشد الناس رهبة منهـا وفزعاً ؛ وفي الترهيب والرهبة كل معاني الاحساس الحي . هنا التقت الروح الجرمانية بصرامة نزعتها الصوفية الموغلة في اتاويه الاسرار من وراء ضفاف المجهول ، مع روح المدنية اللاتينية بنصاعة اشراقها وتفتحها الزاهر على سطح الحياة . وفي هذا التعارض العنيف يقوم المعنى العميق في تجربة رلكه Rilke الباريسية . ولا احسب في تاريخ الالتقاءات الروحية في هذا الباب تجربة ابعد دلالة من تجربة هـذه الروح الملائكية ذات العينين الزرقاوين والشعور المجدولة والنظرة الحالمة في تردد بين آفاق الباطن ومرايا الكون . فكأين من اصحاب الفن والفكر من الجرمان تلبثوا بباريس وكانت لهم فيها مغامرات وحيوات ، لكنهم لم يستطيعوا ان يتعمقوا تجربتها كما فعل رلكه . فالشاعر هنريش هينه Heinrich Heine كان فتى مستأصلاً بحكم تاريخ الشعب « المختار » الذي ينتسب اليه ، فكان في وسعه ان يهاجر الى اي مكان دون ان يشعر بذلك التوتر الناشىء من التعارض الخصب بين روحه وروح المكان . والموسيقي رتشرد فجـنر Wagner كان من العصبية الموحدة لروحه الجرمـانية بحيث لم تقو روحه على تمثل عصبية اخرى ، لهذا غلقت نوافذ روحه دون اي تأثر وانفعال .

اما شاعرنا رلكه فقد كان جرمانياً صادقاً في جرمانيته ، لكنه كان في الوقت نفسه ذا تفتح لما عداها ، جناح عليه ان يتأثر غيرها . كيف لا وهو ينتسب الى تلك المدينة العالمية « فينا » والى تلك الامبراطورية المتكونة من اخلاط متباعدة من العنـاصر والشعوب واللغات ، بيد ان هذا كله انما يعمل على السماح له بفتح نوافذه على الآفاق المعارضة دون ان يستحيل اليها : محاكاة او افناء ومن هنا تنصب قنوات الخارج في هذا البـاطن الزاخر بالممكنات فتغذيه ولا تفنيه او تؤذيه ، او عن رسالته الاصيلة تنحيه او تنسيه .

لهذا كان التعارض في نفسية رلكه خصباً الى ابعد حد ، لانه

ظل محتفظاً بذلك التوتر الحي الذي يسمح وحده بتوليد مركب طريف يستمر في حركة ابدا، بينا طغيان جانب على آخر يؤدي الى الاستئثار، وفي الاستئثار قتـل للتوتر. والمتتبع لتطور هذه الدراما النفسية يشهد منها عجباً.

***

باريس في اواخر آب سنة ١٩٠٢ والصيـف في وداع ينشر القيظ الداكن بين ثنايا المطر الغزير، ومحطة الشمال تستقبل هذا الوافد يجوح خديه عدم الاكتراث وهموم المسافرين وتخاوف التوقع المترجح بين الاعجاب والارهاب. والفتى من اهل العلم، قد جاء حاجاً الى منازل رودان Rodin الذي يحمل له كل اعجـاب ويريد ان يعقد به صلة حية تهيء له ان يكتب عنه ما كلف به من دراسة له، فليغدُ الى حي العلم، الى الحي اللاتيني، وليتمسح بركنه الاقدس الى جوار السوربون. فنزل في فنـدق أوربا Hôtel de l'Europe شارع توليه Tollier رقم ١١، بالطابـق الثالث او الرابع (لا يدري، لانه يخشى ان يحسبها)، كما قـال بعبارة خجول في رسالته الاولى الى زوجه كلارا).

قبة البانثيون الشامخة تحدب على الخالدين الراقدين في اقبائها، وقبة السوربون في شارع سان جـاك St. Jacques ترف خضراء ناعمة كأنها تاج من الزمرد، او كأنها بالاحرى عمامة شيخ من نسل الرسول، عليها وقار ومهابة (ولست ادري لماذا تذكرني يا ساوى، بتلك العمامة الضخمة الموضوعة على راس قبر الشيخ محيي الدين بن عربي في ضريحه بحي محيي الدين بدمشق. وبهذه المناسبة اغريك بزيارة هذا الضريح الذي كان له في نفسي ابلغ الاثر لما ان زرته لاول مرة، وكان ذلك بعد ان تعارفنا وتلاقينا المرة الاولى في بلدك الحبيب. ومن يدري! لعلي قصدت من هذه الزيارة ان تكون وسيلة لاتخذ من ذلك الشيخ الجليل العاشق «ترجـماناً لاشواقي» اليك بعد تلك اللقيا القصيرة! ولعلي كذلك شئت ان نتخذ منه ولياً شفيعاً لغرامنا الطاهر المشبوب. ولا عجب فما اقرب الشبه بين حالنا نحن وبين حاله هو ومعشوقته التي تغنى بهـا في ديوانه «ترجمان الاشواق»! على اني اطلت هنا الاستطراد، وكل ما ارجوه منك ان تبادري الى زيارة ضريح شفيعنا هذا وتلتمس منه البركة لعشقنا، وما احسبه باخلاً عليك بها، ايتهـا العذراء الطهور!). وهناك غير بعيد ناحية الغرب اشجار حديقة اللكسمبور وقد بدأ الخريف يداعب اوراقها فيكسوها صفرة شاحبة في النهار الضحيان. كلتا القبتين والحـديقة ثالوث مقدس في هـذا الحي العتيق.

ولكن الفتى لا يكاد يعي شيئاً مما يرى. فما عتم ان نفر بعنف. هنا شعر بشقاوة الطلاب المساكين الذين يكدحون بين الجدران الكالحة لتلك الغرف الزرية في هذه الفنادق، بهذا راح يصرخ قائلاً: «آه! ما افظع الاماسي في فنادق الطلاب الصغيرة هذه!» فنحن اليوم نرتاع من بشاعة هذه الغرف الضيقة التي تتنفس رائحة شاذة لا استطيع وصفها، والتي لا يدري المرء لها مدخلاً من مخرج، ولا يعرف اين يضع رأسه، فوضع رأسه هو موضع قدمه وكتبه ومآكله وملبسه ومطهى طعامه! فـما بالك بتلك الغرف ايام رلكه، حيث لم يكن الا مصابيح تتنفس غيوماً من الدخان الغازي القاتل، وحيث لا مياه جـارية ولا وسيلة من وسائل الراحة!

على ان دواعي النفور الخارجية لا تكاد تقـارن بدواعيه الباطنية التي يشعر المرء من جرائهـا بذلك الجزع الكوني الذي يحسه المرء وهو لاول مرة في التقاء مع روح مدينة معـارضة. وليس هذا الجزع من نوع جزع المدن العالمية الذي يستولي على كل من يدخلها اول ما يدخل اذا كان خصوصاً من اهـل الريف. فرلكه قد حيي من قبل في مدينة لا تقل في عالميتها عن باريس، الا وهي مدينة «فينا»: ولهذا فيجب ان نسقط هذا العامل في حالتنا هذه، ونقتصر على عامل التعارض بين الروح الجرمانية التي يمثلها رلكه والروح اللاتينية التي تتجسد في باريس. استمع اليه يحدثك عن مشاعره وهو لما يمض عليه غير خمسين يوماً، وقد انتقل من ذلك الفندق الوضيع الى شارع توليه رقم ١١ الى فندق آخر في شارع الآبيه دلبيه رقم ٣ Rue de l'Abbé De l'Epée، هو فندق نيفير Nevers ولا يزال قائماً عند ملتقى ذلك بشارع كلود برنار في الحي اللاتيني، تعلوه سمرة كابية تجلل طبقاته السبع. ولئن كان لا يزال يعد في الحي، حي الطلاب، فهو على درجة من الترف، بل والاناقة. دخلته ذات مساء. فسألت بوابة عن تاريخ بنائه فلم اظفر منها الا بقولها انه قديم يتجاوز قطعاً مـا قبل هذا القرن، وان كثيراً هم الذين يسألونهـا عنه طمعاً في استجلاء رلكه به.

قال رلكه في رسالة الى ارتور هولتشر Arthur Holitscher:

«او تدري كيف ان باريس غريبة عني معادية لنفسي الى غير نهاية، هنالك مدن كبرى هي نفسها شقية حزينة لانهـا كبيرة. وعبثاً تحاول ان تتسع، فان حنينـا ضئيلاً لا يلبث ان يطويها على نفسها، وضجيجها لا يخفت النداء البـاطن الذي يردد

في غير انقطاع : ان المدينة الكبيرة امر منـاف للطبيعة . تلك حال بطرسبرج . لكن لباريس شأناً آخر . فباريس عـابثة ، « مزينة بالمرايا » ، راضية عن نفسها الى غير نهاية ، سعيدة بألوان عظمتها وحقارتها حتى لا تستطيع ان تميز هي بين كلتيهما . يجوس خلال طرقاتها كائنات حية،دون ان تستطيع ان تفصل بين بعضهم وبعض . في الايام الاولى كنت القى مستشفيات في كل مكان : فمن خلف الاشجار في كل الميادين العامة تقوم تلك الابنية الرتيبة ذوات البوابات الضخمة والابواب الجانبية المنشقة في الاسوار العالية المحيطة بها . وفي الواجهات تعرض تمثيـلات لاخبث الامراض ، والصحف تروي بطريقة مغرية جرائم رهيبة ، لاعبة بتلـك اللغة التي تقبل كل شيء والتي كأن كلماتها هي الاحساسات نفسها . نعم ، كل شيء (هنا) امر ينعكس في الوان اخرى من اللعب . آه ! كم كنت اشد على يدي واصك اسناني حينما اشاهد الاشياء النادرة التي كنت اجدها متباينة ! ولم استشعر يوماً هذا المقدار الذي استشعره الآن من الحنين الى روسيا» (رسالة في ١٧/١٠/١٩٠٢) .

في هذا الوصف الفاتن اصدق تعبير عن مشاعر رلكه آنذاك امام باريس . فهو يراها عابثة نرجسية النزعة ، كأنها فتاة لعوب معجبة بنفسها ، وجهها دائماً في مرآتها ، فيها من الغرور والخيلاء ما يزور لها كل ما فيها على انه النموذج الاعلى والامثل في كل شيء ، مها يكن عظيماً او حقيراً . بل لا معنى للحقارة والعظمة بالنسبة اليها فهي تزعم ان كل ما فيها عظيم ، وما على المعايير الا ان تؤخذ منها ووصف رلكه هذا لا يزال صادقاً على باريس اليوم بالرغم ممـا اعتراها من خطوب . فهذه الخيلاء الفواحة تتوسمها في كل نبرة وكل حركة تصدر من اهليها، وتسمعها تطلق لسانها المتنفج المتباهي الى درجة تثير الابتسام العريض ، خصوصاً عند الطبقة المتوسطة .

واحساس رلكه بمعنى الموت يطوف بارجاء باريس كان اشد الاحساس امتلاكاً لنفسه،حتى انه يكاد في بعض المواضع لا يصف باريس او لا يجد لها طابعاً مميزاً الا في طـابع الموت الذي ينيخ بكلاكله على ما فيها . ولقد عبر عن هذا الاحساس ابلغ تعبير ، خصوصاً في الصفحات الاولى من رائعته « صحائف مـالتي لوردز بريجه » Aufzeichnungen des Malte Laurids Brigge ، فقال في اول استهلاله : « اهنا اذن يأتي الناس ليحيون؟ يخيل الي بالاحرى ان ها هنا يموت المرء . خرجت . شاهدت مستشفيات . ورأيت رجلاً يترنح ويخر لوجهه » وهكذا يستمر في وصفه لشبح الموت وهو يجبهه في كل مكان حتى لتفيض صفحات الكتـاب كله بذكر الموت ، الى حد يمكن ان يوصف بأنه خير سفر تغنى بالموت : جزعاً منه واجلالاً له . فلكل موته الخاص ، وان رلكه يصيح في ديوانه « الفقر والموت » راجياً من الله ان يمنح كل انسان موته الخاص . ولكم يريمنا في « صحائف مالتي لوردز برجه » بتلك الانواع من الموت : موت الرجال الذين يحملون الموت في داخل نفوسهم سجيناً بها، وموت النسوة الهرمات القزمات الدفئات اللواتي يستقبلن الموت على نحو فيه احتشام ونبل ومن حولهن الاسرة كلها اهلاً وحشماً وحيواناً منزلية ، وموت الاطفال الذين يموتون وفقاً لما كانوا وما كانوا يصيرون،ثم خصوصاً موت النسوة الحبليات اللواتي ترقد اكفهن على بطونهن الكبيرة الـتي تحمل ثمرتين : طفلاً وموتاً .

هنالك استشعر رلكه الحنين الى روسيا . لان هذه الصور القاتمة الرهيبة التي تتراءى امامه في باريس تغزوه بشعور الاستسلام الصوفي المذعن للمصير ، وهو ما يتمثل في الروح الروسية بكل قوة. فكان عن هذا نداء الدم السلافي في روح رلكه وهو الذي كان نصف سلافي في تكوينه ومجلى آفاقه الروحية .

وزادت الايام توكيداً لمعنى الرهبة الذي اشاعته بـاريس في نفسه . فما يلقاه من الوان الجمال فيها «على الرغم من خلوده المشرق لا يكفي لشفاء الآلام التي يصيبنا بها قسوة الطرقات واختلاطها، والوجه المصطنع للحدائق والاحياء والاشياء . ان باريس تفرض على حاستي القلقة الواناً من القلق لا يبلغ مداها التعبير ، حتى ليخيل الى المرء انها ضالة ، تندفع كأنها كوكب انحرف عن فلكه نحو صدمة رهيبة . ولا بد ان المدن التي يتحدث عنها الكتاب المقدس كانت من هذا النوع ، تلك المدن التي كان يصاعد من ورائها غضب الله ليبطش بها ويفنيها »(من رسالة الى اوتو مودرزون Otto Modersohn في يوم عيد سان سلفستر سنة ١٩٠٢) .

لكن كان ثمت نور يلمع خلال هذا الضبـاب الرهيب الذي استشعره رلكه في باريس ، نور اعانه خلال مقامه الاول هـذا الذي استمر من ٢٨ آب سنة ١٩٠٢ الى نهاية حزيران سنة ١٩٠٣ .

ذلك النور هو نور الفن المشرق من فوق الرابية المطـلة على وادي فليرى ، نور رودان Rodin في معبده بميدون الـذي حدثتك عنه في رسالة سابقة .

اجل ، إن بالفن الخلاص ، حتى من جزع المدن الكبرى .

باريس

عبد الرحمن بدوي

كتابان نافعان

بقلم فؤاد صروف

●

كل حضارة وكل نهضة وكل تحول اصيل في حياة الشعوب يرتد الى اصلين رئيسيين من اصول الحياة. اما الاول فهو الفكر الذي يصور الغايات التي تحدى اليها الركائب، ومنه تنبع القوة المحركة، واليه ترجع الآراء الفلسفية والعلمية والاجتماعية التي تمهد طرقاً كانت وعرة من قبل او غير مطروقة. فنظريات العلم الحديث في بناء المادة، والتطور العضوي والآراء الاجتماعية الحديثة في الاشتراكية والنظم السياسية والاجتماعية هي التي افرغت العالم الحديث في قالبه المعهود. وهي جميعاً صدرت اولاً من الذهن الانساني، ثم لم تلبث ان تغلغلت في حياة الناس كل يوم. واما الثاني فهو البيئة الاقتصادية والاجتماعية التي يعيش فيها الناس — فكل ما يحدث في هذه البيئة تغيراً اصيلاً فيها، من اساليب الصناعة والزراعة والحذق في استغلال موارد الطبيعة، يغير الاحوال التي يعيش فيها الناس؛ فيفضي بعد زمن طويل او قصير الى تغير في آرائهم وافكارهم.

والعاملان متفاعلان، فبحوث مكسويل الرياضية في الامواج الخفية التي تملأ الفضاء افضت بعد زمن الى جميع عجائب العصر اللاسلكي، وشيوع الراديو اخذ يفضي الى توثيق الصلة بين الناس ويفسح المجال لطغيان الدعاية خيراً كانت اوشراً: وارتقاء الصناعة الذي نشأ عن التقدم الحديث في علوم الطبيعة افضى الى كثير من الرخاء وارتفاع مستوى العيش وافضى الى كثير من التفاوت بين دخل طبقات مختلفة من الناس، فأفضى بدوره الى نظرية التفسير الاقتصادي للتاريخ والى المذاهب الاشتراكية المعتدلة والمتطرفة، وقيام بعض الدول وطائفة من الحكومات على قواعد تلك المذاهب.

وهذه في مذهبي توطئة لا بد منها للبحث في الكتابين اللذين انوي اليوم ان انوه بهما. اما الكتاب الاول فعنوانه «ما اسداه المسلمون الى علم الجغرافيا»، وقد الفه بالانجليزية عالم من علماء الهند اسمه نفيس احمد وطبع في مدينة لاهور بالهند، واما الكتاب الثاني فعنوانه «العربية السعودية» وقد ألفه مهندس اميركي يدعى تويتشل وطبع في مطبعة جامعة برنستون بالولايات المتحدة الاميركية.

والكتابان كلاهما يمثلان في رأيي هاتين القوتين المحركتين اللتين ترجع اليهما التطور الاجتماعي: قوة الفكر، وقوة الارتقاء الاقتصادي.

والامة العربية اليوم تجوز فترة من حياتها، لعلها لم تجز فترة اخطر منها شأناً منذ قرون كثيرة. ففي صدرها تحتشد اليوم ذكريات ماض مجيد، ومني مستقبل باهر، اما الاولى فتتحفز لتنبعث واما الثانية فكالجنين يتململ في رحم امه، وقد اخذته سورة الانطلاق حتى يخرج الى النور.

والامة العربية في هذه الفترة الخطيرة من حياتها، تحتاج الى القوتين معاً، قوة الفكر المبدع الذي يعين الغايات ويرسم الطريق، وقوة الانتفاع بالموارد الاقتصادية، حتى يستعين بها في حرب المرض والجهل والفاقة، فتشب الامة في دور انبعاثها، سليمة البنيان. وليس ثمة ما هو ادعى الى حفز همم الشباب من دراسة الماضي واستلهام عهده، واستيحاء مآثر العظماء من رجاله ومن نسائه. فقبل ألف سنة من الزمان عني عالم عراقي مقيم في مصر في زمن الحاكم بأمر الله، بدراسة ظاهرة عجيبة من ظاهرات الطبيعة، وهي ظاهرة ما اشيعها، ولكنها مع ذلك هي كالمعجزة لا يدرك سرها، اعني ظاهرة الضوء. ولكن ابا الحسن ابن الهيثم كشف عن اسرارها ما جعله معلماً من معلمي النهضة الاوربية، ونحن قد نقرأ كتبه اليوم فلا تغنينا عما نجده في المطولات الحديثة عن علم الضوء. ولكن لا يفوتنا ولا ينبغي ان يفوتنا ان العقل الذي صنع ما صنعه ابن الهيثم بغير وسائل البحث الحديثة واساليبه تستطيع عقول كثيرة ان

تجاربه اليوم ، في القاهرة وبغداد ودمشق وبيروت اذا أتحنا لها الفرصة واحسنا حفزها وتوجيهها .

وانا أرى في كتاب السيد نفيس احمد حافزاً من هذه الحوافز الذهنية في المقام الاول ، وان كنت لا اغمطه قيمته العلمية فقد جمع في كتاب واحد ناحية من نواحي اهتمام العرب والمسلمين بالعلوم وكتبها باللغة الانجليزية حتى يطلع عليها ابناء الامم الغربية في العصر الحديث فيدركون ان النهضة العربية ليست عاصفة في فنجان كما يقولون ، وانما هي تجديد لحضارة قديمة عالمية تتصل الدوافع اليها بأعمق القوى التي تحرك النفوس .

فأنا احب مثلاً ، ان ارى طلبة المدارس في الشرق العربي يطلعون على مآثر العرب في الجغرافية وهم يتدارسون في الكتب الحديثة ، خطوط الطول والعرض واوصاف القارات والبحار والانهار ومحصولات البلدان المختلفة وطبائع سكانها ، فكم طالب من الطلاب يعلم ان كتاب الجغرافيا الذي وضعه بطليموس ترجم بالعربية غير مرة ، وقد كان من مترجميه حنين بن اسحق وثابت بن قره الذي توفي اول القرن العاشر الميلادي . وان هذا الكتاب هو الذي حفز الخوارزمي المشهور الى وضع كتابه صورة الارض ، وان هذا الكتاب كان يحتوي على خريطة للسماء صنعها هو وتسعة وستون عالماً ، استجابة لطلب الخليفة المأمون وتشجيعه ، وقد ظلت رسالة الخوارزمي تؤثر في العلماء من بعده خمسة قرون متوالية ، وما قولك في كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة الذي ظهرت طبعته الاولى في اواسط القرن التاسع الميلادي وطواه صاحبه على اول وصف لخواص سطح الارض ، فاعتمد عليه فيما بعد ابن الفقيه وابن حوقل ، والمقدسي . اما الاصطخري فقد ألف في اواسط القرن العاشر كتاب مسالك الممالك وهو غير المسالك والممالك لابن خرداذبة ، وصنع له خرائط بالالوان ، لكل بلد ذكره ، اما معجم البلدان لياقوت الحموي فأشهر من ان يعرف .

ولو كان الغرض ان يحصي الباحث ذكر الذين الفوا في الجغرافية من المسلمين واسماء الكتب التي ألفوها لضاق الحديث عنه ، ولا نحصر في كشف مسهب من الاعلام في الناحيتين ، ولكن حسبنا ان نقول ان المسلمين اعتنوا كثيراً بوصف البلدان ، واستطلاع الحقائق الطبيعية اللازمة لمعرفة الجغرافية ، وتركوا في ذلك تراثاً ضخماً نفيساً . وقد كان تراثهم ملهماً لمن جاء بعدهم من الباحثين وبحراً غنياً حافلاً بالحقائق والملاحظات ، غاص العلماء فيه واستخرجوا منه نفائسه .

وقد كان بين الكتب الجغرافية القديمة التي وضعها العرب كتابان وضعهما عالم يمني هو الحسن بن احمد الحمداني المتوفى سنة ٩٥٤ ميلادية في سجن صنعاء ، وهذان الكتابان هما « الاكليل » و«صفة جزيرة العرب » ويعدهما العلماء من ذخائر المعرفة عن الجزيرة العربية قبل الاسلام وفي عهده الاول .

وقدجاء اليوم مؤلف امريكي فوضع كتابه «العربية السعودية» دون ان يهمل ذكر اليمن حتى يصح بشيء من التجاوز ان نطلق عليه «صفة جزيرة العرب في القرن العشرين» : والمؤلف مهندس يهتم بالتعدين على وجه خاص ولكن جلالة الملك عبد العزيز شرفه بصداقته واتاح له ان يطوف في المملكة كيف شاء حيث يؤذن له ، واعتمد على التقارير التي رفعها اليه عن الموارد الطبيعية وافضل الوسائل لاستغلالها والانتفاع بها لتحسين حال الشعب وزيادة مصادر رزقه .

والحياة في الصحراء صراع دائم في سبيل الرزق ونضال لا يفتر لرد غوائل القحط والجوع ، فلذلك عني تويتشل اول ما عني بدراسة موارد الماء في الصحراء وخير الاساليب للانتفاع به في الزراعة ، ثم عني ايضاً بمناجم المعادن ، واحتمال وجود الزيت قبل ان يوجد فيها ببضع سنوات ، ولكنه لم يقتصر على دراسة الموارد الطبيعية والانتفاع بها ، بل ذكر صفة الارض وطبقاتها وطرق مواصلاتها وبقايا آثارها ، وأخلاق شعبها وتنظيم ادارتها في حكم آل سعود ، وغير ذلك من الموضوعات . وقد قسم كتابه ثلاثة اقسام : القسم الاول يشتمل على الصفات التي تميز العربية السعودية ، والثاني يصف نموها الاجتماعي والسياسي ، والثالث منزلة العربية السعودية في الاقتصاد العالمي . فلم اكن متجنياً على الحمداني حين قلت انه يصح ان نطلق على كتاب تويتشل « صفة جزيرة العرب في القرن العشرين » .

واهم ما نتبينه في هذا الكتاب هو تأثير المشروعات الزراعية الحديثة واستنباط الزيت في اقتصاد المملكة العربية السعودية ، ولعل أبلغ مثل على المشروعات الزراعية مشروع الخرج المشهور . وواحة الخرج تبعد ٥٦ ميلاً عن الرياض ومعدل ارتفاعها ١٥٠٠ قدم فوق سطح البحر ، وفيها فجوتان عظيمتان قطر كل منهما ٣٠٠ قدم وعمقها ٤٢٠ قدم وفي الفجوتين ماء زلال يتسرب اليهما من ماء المطر بعد ان يتخلل الارض ، وقد ركبت عليها مضخات قوية تخرج الرى ٧٠٠٠ جالون من الماء في الدقيقة ، وبنيت قناة من الاسمنت المسلح طولها عشرة اميال فتروي ٣٠٠٠ فدان تغل اليوم

انتصار الشيطان

●

اصطخب الليل بهدير العاصفة
وسرى في الحي عزيف الريح
وعم الهياج دنيا الشجر

***

ولاذت الأطيار بوكناتها
وقبعت الضواري في أوجارها
واستجارت السفن بشاطىء البحر

***

في تلك اللحظة الصاخبة
انطلقت العذراء من خدرها
فشهقت الاكوان لطلوع القمر

***

وركضت الى التل البعيد
حيث يربض غول كبير
وصاح لمرآها : هذه ليلة العمر

***

ومد يده وانتزع غلالتها
وقذفها في النار يُذكي اوارها
وراحت العذراء ترقص رقص الغجر

***

وعند ان الكون السكون
وسمت الآئمة الى خدرها مع الفجر
انطلقت الغربان تجوب السماء
وكان الشيطان قد انتصر

بغداد — فؤاد الوفداوي

مقادير عجيبة من البرسيم والقمح والبطاطس والجزر والبصل والباذنجان والبطيخ وغيرها .

وجلالة الملك عبد العزيز يقول : ما تم هنا يمكن ان يتم في اماكن اخرى . فلذلك ترى ان حصر موارد الماء وانشاء المنشآت اللازمة للانتفاع بها في طليعة برامج العمل الذي تتولاه الحكومة السعودية .

وهذه البرامج تشمل انشاء ميناءين صالحين في جده في الغرب، والقام في الشرق، وسكة حديدية بين ساحل الخليج الفارسي والرياض، واقامة محطات توليد الطاقة الكهربائية للاضاءة ورفع المياه للري وتوريد المياه العذبة من وادي فاطمة الى جده واعداد المستشفيات ونشر دور التعليم . والملك عبد العزيز يريد الاصلاح الاقتصادي فيدأب على توجيه الامراء ورجال الدولة اليه ويعينه في ذلك ما يتقاضاه من شركة الزيت العربية الامريكية ، بعد ان ثبت ان موارد المملكة العربية السعودية من الزيت تعد الآن في المنزلة الخامسة بين امم الارض . والشركة حريصة ، حتى بعد تأدية الاتاوة، على تلبية طلب جلالة الملك عبد العزيز والحكومة في كل مشروع من مشروعات الاصلاح ، فرجالها يحرصون اشد الحرص على احترام استقلال البلاد ومعاونة حكومة جلالته ويعتقدون ان كل عمل من هذا القبيل لا تتم له مزية النفع المتبادل ولا يسعى القائمون بأمره سعياً صادقاً لكسب ثقة الشعب ومودته واحترامه ، خليق ان تعصف به عواصف الدهر ، وكذلك تتم الفائدة التي تعود على البلاد العربية من زيادة دخل اهلها واتاحة العمل الشريف لآلاف من ابنائها وما يكسبونه من ضروب جديدة من الحذق في العمل ، وتجنب الخوف من ان تصير هذه المشروعات الضخمة ضرباً من ضروب الاستعمار الاقتصادي .

وفي تقدير المهندس ثويتشل ان ليس لمستقبل العربية السعودية من الناحية الاقتصادية افق معروف ينتهي عنده .

واذن فنحن نرى في هذين الكتابين اشارة الى اصلين رئيسيين من اصول الحياة والحضارة — اصل الفكر الممثل في ما اضافه العلماء المسلمون الى الجغرافيا او قل الى العلوم، واصل الموارد الاقتصادية الوافرة في البلاد العربية وحسن استغلالها ، فاذا احسنا الانتفاع بما يوحيه هذان الكتابان فقد قبضنا على زمام النجاح فيما نرنو اليه من تجديد حضارة كانت في عصرها معلمة الدنيا .

القاهرة — فؤاد صروف

رسالة غرام

لم تكن هذه – قصة – وانما هي احدى مسرحيات الحياة الدنيـا التي تصطرع فيها الشهوات وتحترب فيها الغرائز الجنسية حرباً لا هوادة فيها . وقد شـاء القدر ان تمثل فصولها في عدة جهات من ريف مصر ثم تنتهي في محكمة الجنايات حيث اسدل الستار عليها .

●



بقلم امين يوسف غراب

كانت تمتاز عن اترابها بجمال ثائر متقد كأنه الجذوة التي لا تخمد ابداً . فمن قوام فارع ميـاد ، يعلوه وجه كأنه القمر الوليـد ، الى صدر مشرئب ، الى قوام دائم الحركة لا يهدأ ابداً ولا يقر له قرار ، رغم الخصر الواهي الذي ينوء بحمله . وكان ذلك يبدو واضحاً اذا سارت في القرية تحت جلبابها الازرق ، وكان ذلك ايضاً يبدو اكثر وضوحا بـل اعنف ثورة وطيشاً وهي عائدة من النهر تحمل جرتها يداعب النسيم عطفيها وتعري اعطافها الثوب المسكين الذي يونحه الشوق ويهفو للمسها فتعبث الفتنة عبثها المرير .

وكان من الطبيعي ان تتكاثر الفراشات على ذلك المصباح النير وان تتهافت عليه ، وان يعدو كل من في قرية « شطورة » مركز طهطا سعياً الى ذلك الضياء . ويتمنى ان يتزوج « آمنة احمد عبد الله » وان يظفر بها في داره . ولكن شاءت بعض الظروف التي تربط الاسر في الصعيد برباط الصداقة والود ان تكون آمنة من نصيب رجل تقدمت به السن بعض الشيء . هو « عبـد المبدي علي » ضارب الطوب في قرية شطورة .

وسعـد الرجل بزوجه الحسنـاء . وراح ينهل من ذلـك الرحيق العذب ما وسعه ان ينهل . وكلما رشف رشفة من الثغر الرطيب الفاه احلى مما كان يتصور واعذب مما كان يظن . وعرف حقيقة ان اهل القرية كانوا على حق حينما تهافتوا على « آمنة » تهـافت الفراشات على النور . وتمنوا ان يظفروا بهذا الجمال الذي ظفر به دونهم جميعاً ، ومعنى ذلك انه اسعد منهم جميعاً ، ومعنى ذلك ايضاً انه لا بد وان يكون موضع سخطهم وموضع حقدهم كذلك ، فماذا يعمل ؟ . أيستطيع ان يأمن شر العيون والقمر ما زال يسطع نوره في قلب القرية ؟ وما زال يتلألأ فيها كلما عادت « آمنة » من النهر تتهادى بجرتها تيهاً ودلالا وهل يستطيع ايضاً هذا الزوج الذي تقدمت به السن ان يقطع بأن قلب هذه الزهرة اليانعة لم يتفتح لغيره . ؟ انه لكي يأمن شر العيون وليضمن لنفسه الهناء ويحتفظ بذلك الجمال ويقطع كل امل فيه ، فليأخذه وليطر به من القرية ويهاجر الى بلد بعيد ليس فيه من شغفته « آمنة » حباً ، فبات يذرف الدمع السخين وهو ينصب الشباك لصيد الطائر الجميل . وليس فيه ايضاً من يحقد عليه او يضمر له كرهاً . وازمع الرجل على الرحيل واخذ « آمنة » وغادر القرية الى المحطة بين الاهـل وتوديع الاصدقاء . واقبل القطار وتصاعدت عبارات الوداع

وقطرات الدموع، ومدت «آمنة» يدها اللعوب وصافحت الاهل والاصدقاء، بيد انها شعرت برعشة خفيفة وهي تمد يدها الى فتى شاحب الوجه مخضل الطرف وقف مشدوهاً لا يطرف ينظر اليها ثم الى القطار الذي يتوارى في ضمير الغيب ويرسل في اعقابه صوتاً حزيناً مجروحا ويردد مغنياً :

زعق البابور ع السفر — قلت رايحين فين
رايحين تغيبوا سنه — ولا تغيبوا اتنين
قالوا رايحين نغيب سنه — لكن بدمع العين

وكان هذا صوت الفتى «محمد مصطفى عبد العال» الذي لم يكن يظن احد في القرية ولا حتى هو قبل يوم الرحيل ان الحب قد اصطفاه هو دون سائر شبان القرية وجرح قلبه بمبضعه الوردي.

***

وحط الزوج رحاله في مديرية البحيرة واتخذ من عزبة متولي المجاورة لقرية (ندبية) مركز دمنهور موطناً له وسرعان ما اشتهر بصناعة ضرب الطوب واتخذ من قطعة ارض فضاء تفصل بين العزبة والقرية مكاناً له وابتنى فيها خصاً له من الآجر عاش فيه آمناً مع زوجه الحسناء. ومرت الايام وتعاقبت السنون وانجبت «آمنة» ثلاثة اطفال : هندية، ومحمدين، وسالم. كل ذلك والزمن يسير بالزوجين ويخب بهما خبباً في طريق صالح معبد، غير انهما — وقبل ان يبلغا نهاية الطريق الذي رسمته لهما السعادة — وقف الزمن بهما احدى وقفاته القاسية. ففجأة، الفى الزوج نفسه وقد نضب معين حيويته بينا «هي» ما زالت تطلب الرعاية وتحتاج الى الماء الدافق الذي يرويها ويجنبها عوادي الظمأ ولفحات الهاجرة التي تحيلها الى اعواد من خشب. وهكذا تلفتت المرأة الشابة فألفت نفسها تفقد شيئاً ثميناً هي في امس الحاجة اليه. هو الرجل الذي يكبح جماحها. فهل هذا الزوج هو هذا الرجل؟ ان ذراعه هذه الواهية المرتعشة، وصدره هذا الخافق المضطرب، وهذا العنق المترهل الذي هده الزمن فانجرف بالرأس وغدا فوق الصدر منكساً كالعلم الحزين... ان هذا كله ليقول «لآمنة» ان لا، ويقول لها ايضاً انك «صعيدية» تعرفين معنى الشرف وتقدرين معنى الامانة الزوجية. ولهذا فمن الحتم عليك ان ترضي بهذا.

***

ومرت عدة سنوات اخر لم ينم فيها ذلك الفتى العاشق الذي شفه الوجد وبرح به الضنى. ولذلك راح من ذلك اليوم ينتقل من مدينة الى مدينة ومن قرية الى قرية ويزاول شتى المهن ويتجرع صنوف المذلة والهوان فمن بائع حلوى في الطرقات الى عربجي كارو في روض الفرج الى بائع متجول يبيع الفانلات والشرابات حتى وقف في النهاية على وطن الحبيبة ونزل ضيفاً على زوجها الشيخ الذي اكرم وفادة هذا الغريب وانزله من نفسه وبيته منزلة حسنة، وعاش الفتى في كنف الشيخ حيناً يتجول في الاسواق ويبيت في الليل مع الزوج امام الخص الذي احتوى آماله وامانيه.

وفجأة استيقظت «آمنة» من ذلك السبات العميق ونفضت عنها تراب الصمت الذي لازمها حيناً فرأت امامها الفتى العاشق الذي تتدفق القوة والحيوية من عينيه، ورأت هذا امامها رأي العين لا يكلفها الحصول عليه سوى ومضة تلمع من بين هذا الهدب الطويل المسترخي وتومض من بين هذا الجفن المنكسر المضمخ بالسحر. وكانت هذه الومضة، ثم اتبعتها ومضات رجعت على اثرها كما كانت ريانة العود وارفة الظل عبقة كالزهرة المتضوعة كما عاد من جديد المنديل ابو اويه المطرز بالترتر وخرج النجف تنعقد اطرافه وتتدلى على الجبين الوضاح فوق «الفرق الاعوج» فتزيده نوراً وفتنة.

كل ذلك والزوج العجوز لا يدري من امر نفسه ولا من امر زوجه شيئاً. وانما كل الذي يدريه ان العلة كانت تتتابع بين الحين والحين فلا تتركه الا وهو خائر القوى منهوك الاعصاب يكاد يرى الموت بعينيه لولا يد الزوجة «الوفية» التي تدفعه عنه وقروش ذلك الضيف الكريم توقف المرض احياناً عند حده.

غير ان هذا كله لم يدم طويلا فقد بدأت عيون اهل القرية تمتد الى ذلك الخص لترى ما فيه من احداث لا يعلم الزوج من امرها شيئاً وانما يعلمها عاشق موله وعاشقة قد شغفها الوجد وحرقتها النار فألقت بنفسها في اليم لتتبرد. كما بدأت الهمسات ايضاً تمتد وتتطاول حتى بلغت اذن الزوج فمستها مساً خفيفاً رقيقاً فلم يصدق اول الامر وانما رد تلكم النظرات واخرس ذلك الهمس بأن صرف الضيف بالحسنى وحرم عليه بعد ذلك زيارة البلدة التي هو فيها.

وافترق العاشق لا عن قلى وانما عن رضا لانه عرف كيف يدبر امره وكيف انه سيلتقي بمعشوقته في غير الخص وفي غير هذه القرية التي بدأت تتقول عليه، فاتفقا على ان يتقابلا في مكان آخر وعلى ان يتكاتبا دائماً ايضاً، وعلى ان يكون رسول الغرام بينهما «عبد العزيز الحلاق» صاحب صالون الحلاقة في ندبية الذي اطلعه العاشق الموله على حبه، والذي باسمه سيرسل العاشق خطابات الغرام الى معشوقته ومنه سترسل الحبيبة خطابات الحب الى حبيبها. وسارت بعد ذلك الايام سيراً رتيباً فكلما شف الوجد احدهما ارسل الى الآخر.

وكلما برح بهما العشق التقيا في كشك جندي المرور الذي هيأ للعاشقين من كشكه خلوة غرام واقام نفسه حارساً عليها كلما اختليا فيه .

بيد انه حدث ذات يوم ما لم يكن في الحسبان . فقد حدث ان تغيب رسول الغرام وهو الحلاق عن صالونه عدة ايام كتب خلالها محمد الى « آمنة » رسالة غرام عنوانها كالعادة :

« دمنهور البحيرة ومنها الى عزبة متولي : يصل ويسلم ليد عبد العزيز الحلاق ومنه الى آمنة احمد عبد الله » وظن الصبي الذي يعمل في الدكان ان هذه الرسالة من احد اقارب آمنة زوجة عمه عبد المبدي الصعيدي ، وتصادف ان مر الزوج عفواً على الدكان فناوله الصبي الرسالة وهو لا يعرف شيئاً .

وتناولها الزوج ايضاً وهو لا يعرف شيئاً .

بيد ان اساريره راحت تنقبض رويداً وهو يقرأ هذه الرسالة التي نثبتها بنصها وحرفها رغم ما فيها من سذاجة وطيش :

«حضرة المحترمة آمنة احمد بعد السلام عليك . نعرفك اني طيب بخير ولا يكون عندك شاغل من جهتنا . وبعد سلامي اليك كثير السلام وبعد ، اعرف حضرتك ان انا الآن في مصر وان شاء الله حاضر عندكم يوم الجمعة على محطة حفص في اوان الظهر وتكون مستعدة بالحاجات اللي عندكم على محطة حفص ان شاء الله ولا يكون عندكم شاغل من جهتنا بالمرة لاني انا الآن باشتغل شهرية ١٢ جنية شهري . وبعد اعرف حضرتك انك بتكتبي الجواب ولا تكمليه فأنا زعلان اشد الزعل من جهتكم وانا من مدة عشرين يوم كنت بييع فنلات وشرابات ومناديل في الجهات اللي عندكم . وانا تركت العزبة من ٢٠ يوم وترات العزبة بعد المغرب ولاوقفت عليك على اثر والحمدلله ، هذا وسلامي اليكم كثير السلام .

ونعرفك ان انا حضرت عندكم يوم الجمعة على محطة حفص على المطوح اللي كنت شغال فيه بجري المسافة على الجسر برضه عند العزبة اللي بيتنا فيها في الدكان اللي بيتنا فيها العسكري ساعة ما بعنا النحاس واحنا جايين من اسكندرية وبتنا في كشك العسكري ليلة الجمعة فأنا خايف لاحسن حد يعرف مطرحي وتجيبي معاك اللازم كله وانا جايب لك اللازم معايا جلاليب وصور عريانة وفنلات وشربات كلها لم بعتها وضروري من السفر علشان الانتظار في المطوح اللي بيتنا فيه يوم الجمعة نفسه وبلاش على محطة حفص الانتظار فيه المطرح اللي بيتنا فيه . وضروري تحضري بنفسك علشان انا ضروري في الانتظار ولله الحمد والله اذا لم سافرت في المطرح الذي قلت عليه ضروري ضروري ضروري والسلام ختام».

وفكر الزوج واجهده التفكير .. ايقتل هذه المرأة التي خانته واستباحت شرفه في غفلة منه ؟ ولكنه ان قتلها سيقتل هو الآخر . ومعنى ذلك ان هؤلاء الاطفال الصغار الذين بلغ عددهم ثمانية سيموتون جوعاً . ولكن لماذا يجهد نفسه ويرهقها كل هذا الارهاق؟ ان هذه المرأة ان كانت قد اهدرت شرفه كزوج فقد استباحت ايضاً عرض اهلها في الصعيد فلماذا لا يبعث بهذه الرسالة الى الاهل الذين يملكون وحدهم حق الذود عن هذا العرض . اما هو فيستطيع ان يسترد شرفه بكلمة واحدة تخرج من فمه ، بها يلفظ هذه المرأة لفظ النواة .



الاستاذ امين يوسف غراب

وذهب الزوج الى الحص كأنه لم يحدث في الوجود شيء ، ونام تلك الليلة مطمئناً بينما كانت الرسالة في طريقها الى شطورة مركز طهطا .

بيد ان هذه الرسالة المشئومة كما وقعت من قبل خطأ في يد الزوج وقعت كذلك خطأ في يد فتى صغير السن لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره هو « محمد محمد علي » ابن عم « آمنة » وقرأ الفتى الرسالة وقرأها مرة ومرة ومرة .. وفكر هو الآخر واجهده التفكير ان الاسرة التي تنحدر من اصلابها آمنة ليس في افرادها من يستطيع ان يأخذ بالثأر ويرد لهذا الزوج شرفه المستباح فوالد آمنة قد بلغ به الكبر عتياً . وامها لا حول لها ولا قوة وشقيقها الذي كانت تعقد عليه الامال في مثل هذه الملمات قد مات منذ سنوات . ولكن انت على قيد الحياة وآمنة بنت عمك وانت وهي تنحدران من اصلاب واحدة فهل يرضيك ان تفجر آمنة هكذا وتهدر شرف الزوج علانية وتستبيح عرض الاهل وانت لاه في دنياك .

وزم الفتى على شفتيه ولمعت عيناه لمعاناً مخيفاً وهو يضغط بانامله على الرسالة ويدسها في جيبه ليخفيها عن الناس جميعاً . وبعد

يومين اثنين كان الفتى في القاهرة . ولكن الجنيه الواحد الذي كان يملكه من دنياه قد انفقه عن آخره وهو لم يبلغ بعد المكان الذي يريد . فهل يثنيه هذا عن عزمة وعن رد الاشياء الى نصابها . وسأل الفتى عن المسافة بين القاهرة ودمنهور فقيل له انها بعيدة جداً وانها لا تقطع على الاقدام . ولكن هذا ايضاً لا يمنع من اصابة الهدف فما اهدر شرف واستبيح عرض وخلفه فتى يعرف للشرف حرمته وللعرض قداسته . والتحق الفتى عاملاً بمخبز المعلم بيومي حسن بشارع رفعت بالقاهرة ومكث فيه عدة ايام ادخر في اثنائها أجر السكة الحديد من القاهرة الى دمنهور وما ان اقبل عصر يوم ١٦ /٨ /١٩٤٧ حتى كان يرى فتى صغير السن حافي القدمين تعلو وجهه كآبة قاتمة يسأل المارة في دمنهور عن عزبة متولي التابعة لنديبة واقبل ليل ذلك اليوم واقبل كريهاً مكفهراً كوجه ذلك الفتى الذي كان يسير رابط الجأش على جسر القناة المجاورة للعزبة حتى بلغ ذلك الخص دون ان يراه احد والذي تصادف انه لم يكن به غير آمنة وحدها تنظر في مرآة صغيرة في يدها الى تلك العيون المضمخة بالسحر والتي شاقها طلعة الحبيب الغائب والى تلك الشفاه الغليظة التي تتلمظ شوقاً الى القبل .

وانبعث صوت خافت من امام الخص ينادي . . . آمنة !
وخرجت آمنة في هدأة الليل لترى المنادي وما ان رأت امامها « محمد » الذي لم تره منذ سنين حتى صرخت متهللة « ولد العم » ومدت ذراعيها واحتضنته ثم مدت تلك الشفاه الغليظة وهمت بان تطبعها على ذلك الوجه الاصفر الشاحب بيد انها ارتدت فجأة هلعة مذعورة من طعنة السكين الحادة الانصال التي انغرست في تلك البطن الناعمة الملساء وبقرتها وأسالت دماءها . وصرخت المرأة ولكن الفتى اسكتها بطعنة ثانية وثالثة وظل بها يطعنها وهي مستلقية على الارض تسبح في بركة من الدماء . وما ان اتى على الطعنة « الخامسة والعشرين » حتى فاضت روحها ، ولم يكتف الفتى بذلك بل جلس مطمئناً بجانب ذلك الجسد الذي تتدفق منه الدماء ، وتناول السكين مرة اخرى وتلمس ذلك العنق الاتلع الذي كان الصلة بين ابهى وجه لامرأة واجمل جسد لانثى واجهز عليه ، ثم وبنفس الاطمئنان تناول الرأس بين يديه ونظر اليه حيناً ثم القى به على الارض بعد ان بصق عليه وركله بقدمه بعيداً . . . وانصرف الفتى ينظر مبتهجاً الى السكين المخضبة التي تلتمع في عتمة الليل وما ان بلغ جسر القناة حتى قابله احد الفلاحين فاستوقفه الفتى وسأله قائلاً :

— أليس لهذه القرية من عمدة .
فقال له الفلاح وهو يشير بيده غير بعيد .
— هذه داره وها هو يجلس امامها .

وما هي الا خطوات حتى كان الفتى يجلس بين يدي العمدة يقص عليه نبأ مصرع آمنة بهذه السكين المخضبة بالدماء .

وفي ٢٠ /١ /١٩٤٨ قدم القاتل المعترف بجريمته الى المحاكمة امام دائرة جنايات دمنهور برئاسة صاحب العزة زكي اباظة بك وعضوية قطب فرحات بك ومحمد عبدالله السيوفي بك بتهمة القتل العمد مع سبق الاصرار . وقامت النيابة ودلت على صحة الاتهام ثم طالبت في النهاية بعنق الجاني كما سبق هو وطلب من قبل عنق المجني عليها وناله واجتزه بتلك السكين الحادة الانصال . والسن بالسن والعين بالعين . بيد ان الدفاع كان لبقاً وكان قوياً ايضاً حينما قام وشرح ظروف هذه الجريمة والدوافع التي دفعت الى ارتكابها ثم تحدث طويلاً عن نفسية المتهم وقت ارتكاب الحادث وخاص من ذلك الى ان التشريع المصري الذي يفرض العقوبة على المرأة المستهترة له عدة عيوب وعيوب كثيرة سببها انه اخذ من التشريع الاجنبي الذي جعل حق العقوبة للزوج دون الاهل والاقرباء وعذر الشرع الاجنبي في ذلك عدم وجود الطلاق عند الاجانب مما جعل المرأة وتصرفاتها الصق بالزوج دون غيره . اما الشريعة الاسلامية التي تبيح الطلاق وتأمر بتقويمهن وهجرهن في المضاجع قد جعلت هذه العقوبة من حق الاهل لا الازواج فقط ولذلك اباحت الطلاق وجعلت جريمة الزنا من اخطر الجرائم التي تمس العرض والشرف وتأتي على كيان الاسرة . بعكس القانون الاجنبي الذي يعاقب المرأة المستهترة عقاباً بسيطاً لا يتفق ابداً مع جسامة الحادث وخطورته وذلك يرجع الى سبب اختلاط الجنسين ومساواة المرأة بالرجل مما يتنافى مع شعائر الشرق وتقاليده . . ودلل على ذلك بنفسيتين متناقضتين هما نفسية الزوج الذي وقعت في يده رسالة عشيق زوجته وكيف انه فكر تفكيراً مستقيماً لانه زوج وله حق الطلاق وله ان يلفظ المرأة في اي وقت شاء دون ان يمس هذا شرفه . ونفسية القاتل الذي تنحدر المشيقة من اصلابه وكيف انه المسؤول عن هذا الشرف الذي اهدرته والعرض الذي استباحته .

فقدرت المحكمة كل هذه الظروف تقديراً دقيقاً كما قدرت نفس الدوافع الى الجريمة وقت ارتكابها فقضت بسجن القاتل سبع سنوات مع الاشغال .

مصر — امين يوسف غراب

نيويورك منذ ٤٥ عاماً

من حصاد الذكريات

بقلم وليم كاتسفليس
عضو الرابطة القلمية

●

من اقوال الرومان (الوقت يطير) . ويخال لي وانا ارجع بالذكريات القهقرى عبر السنين ان الوقت حقاً يطير . واني وصلت الى مرفأ نيويورك « امس » على متن الباخرة الاميركية (كنغستون) في حين ان هذا « الامس » كان في الواقع ايلول من سنة ١٩٠٢ اي منذ ستة واربعين عاماً !

ولا ازال اذكر ان الاثر الذي تركته نيويورك في نفسي لدى القائي عليها النظرة الاولى كان غير جميل . فقد استهجنت منها منظر بناياتها الشاهقة تنطح السحاب هنا وهناك من غير تناسب ولا انسجام مع ما يحيط بها من البنايات والمنازل . وها انا بعد ان قضيت فيها معظم ايام حياتي لا ازال عند رأيي الاول اقول انها دون باريس واسطنبول جمالاً وروعة وفتنة .

لما وطئت قدماي ارض نيويورك لم يكن للمهاجرين من الشرق الادنى اسماء اقليمية كسوري ولبناني وفلسطيني بل كانوا جميعهم في نظر الاميركيين سوريين . اما في احيائهم الخاصة فكانوا (ابناء عرب ، او ابناء عروب) . وكانوا يعدون دولاراتهم بالآحاد والانصاف والارباع فصاروا اليوم يعدونها بالآلاف ومئات الالوف وبالملايين .

حالة المهجر الادبية

يتبادر الى ذهن القارىء العربي حين يذكر مهجر الولايات المتحدة اسماء اعلام النهضة الادبية المهجرية المباركة الذين تألقوا في سمائه تألق النجمات : جبران خليل جبران ، امين الريحاني ، مخائيل نعيمة ، نسيب عريضة ، وسواهم من هذه الطائفة الكريمة ؛ غير اني لما حططت رحالي في نيويورك كان هؤلاء حلماً جميلاً في ذمة الزمان . فالشاعر رشيد ايوب وسليم كسباني ووديع باحوط وندره حداد كانوا منصرفين الى التجارة بعيدين كل البعد من هياكل ربة الشعر والادب . اما مخائيل نعيمة ونسيب عريضة وايليا ابو ماضي وعبد المسيح حداد فكانوا لا يزالون في الوطن القديم ، وكان امين الريحاني يتعلم فن التمثيل واحياناً ينشر مقالات تمنى بعدئذ لو استطاع محوها من الوجود . واما جبران فكان في بوسطن منصباً على اتقان فن الرسم ينشر حيناً بعد آخر مقالات باسلوب مبتكر في جريدة « المهاجر » لصاحبها الكاتب القدير امين الغريب .

انا وجبران

اذكر اني اجتمعت بجبران لاول مرة في الوطن القديم . وكنت في بستان لنا مع بعض الرفاق في الفيحاء . واذا بصديقنا المرحوم عزيز بك راجي الظاهر يدخل علينا ومعه فتى نحيل الجسم حسن الهندام . فعرفه الينا وقال عنه انه شاب جاء من الولايات المتحدة حديثاً لمتابعة دروسه في مدرسة الحكمة . وقد الفيناه شابا مثقفاً حلو الحديث فانسنا به واحببناه . وكان هذا الشاب جبران خليل جبران . ثم كرت السنون ولم نجتمع ثانية الى ان ساقت التقادير ركابي الى بلاد العم سام . وفي ذات ليلة كنت زائراً صديقي المرحوم نجيب دياب صاحب جريدة مرآة الغرب في منزله بعدو كان . فقال قائل : « جبران جاء من بوسطن . وهو ضيف على الاستاذ امين الغريب . فهيا بنا نزورهما ! » وقال لي آخر انا اعرفك بجبران فقلت : دع عنك هذا الامر فلعله يتذكر اجتماعنا السابق . وفعلا ما كادت تقع عينا جبران علي حتى ناداني باسمي وذكرني باجتماعنا

في فيحائنا العزيزة وكان قد مضى عليه نحو عقد من السنين! ومنذ ذلك الحين تمكنت بيننا صداقة متينة لم تنقطع طوال ثلاثين سنة الى ان قطعتها يد المنون .

الرابطة القلمية

لا شك في ان القارىء يود ان يعرف كيف تأسست الرابطة القلمية وما هي الغاية منها . واني على الرغم من ضيق المقام راسم في ما يلي خطوطاً رئيسية لا تزال عالقة في الذاكرة :

كان من عادة بعض ادباء نيويورك ان يجتمعوا بعد الانتهاء من العمل في ادارة احدى الجرائد العربية لتبادل الرأي والاستئناس. فلما جاء جبران نيويورك من بوسطن للاقامة الدائمة فيها وجاءها مخائيل نعيمة من سياتل في ولاية واشنطن اخذنا جميعاً نشعر بوجوب عقد جلسات منظمة . فقر رأينا على تأسيس رابطة قلمية تكون غايتها تشجيع الانتاج الادبي العصري والتعاون مع العناصر الادبية المجددة في الاقطار العربية لرفع مستوى الادب وخدمة امتنا باقلامنا . ولم تكن الرابطة جمعية او نادياً بالمعنى المعروف بل كانت مجلساً يضم رفاقاً تآلفت اذواقهم وانسجمت منازعهم الادبية والفكرية . والحقيقة تقال ان تنظيم الرابطة يعود الفضل الكبير فيه الى «ميشا» نعيمة . فهو لو لم يكن كاتباً وشاعراً لاستحق ان يكون قائداً عسكرياً . فانه رجل اداري مدقق ومنظم من طراز عال .

اقف هنا لاقول كلمة صريحة وهي انه لم يتوهم احد من عمال الرابطة انه زعيم او مبدع في حقل الادب او انه يفضل سواه من الادباء المعاصرين الناهضين . كنا جميعاً نعجب بمواهب الادباء المجددين في لبنان وسوريا ومصر والعراق ونقدرها حق قدرها ونشعر ان من واجباتنا تشجيع الادباء المجددين لينطلقوا من القيود الادبية المرهقة التي تحول دون اظهارهم مواهبهم الكامنة ولذلك صممنا على ان تكون الرابطة ذاتها القدوة الصالحة والدليل الى سواء السبيل . وكانت مطامحنا لا تعرف حداً . فكنا نأمل ان نجمع من المال ما يمكننا من زيادة الانتاج الادبي المفيد لا في المهجر فقط بل في لبنان ومصر وسوريا وسواها بطبع المؤلفات القيمة على نفقة الرابطة ! على ان هذا الحلم الجميل لم يتحقق لان المغتربين - اغلبيتهم الساحقة - كانوا ولا يزالون تحت تأثير ما يصح ان نسميه نفسية القرية . اي ان نظرهم الى واجباتهم الاجتماعية لا يتجاوز القرية او البلدة التي هاجروا منها . كترميم كنيسة او انشاء مدرسة او مصح او ما اشبه ذلك من المشروعات المحلية المحدودة المرمى . اما الافق البعيد ، الانسانية الشاملة فهذه كانت ولا تزال غامضة عليهم .

على اني غير متجاوز حد الانصاف بقولي ان الرابطة قد ادت خدمة جليلة للادب العربي وكانت مصدر اتجاهات فكرية وادبية هامة نرى آثارها ظاهرة جلياً في الانتاج الادبي المعاصر .

جبران والريحاني

كان جبران والريحاني صديقين لا يفترقان مدة طويلة يصاحبان كبار الادباء الاميركيين وفنانيهم . ولكن (ابناء الحلال) واعني طبعاً ، اهل النميمة ، لم يتركوهما حتى افسدوا عليهما صداقتهما ، فتحولت الصداقة الى فتور فنفور . واذكر اني اضطررت مرة ، اذ كنت عريفاً لحفلة وديع شكري بخاش ، الى ان امنع كليهما من الخطابة مخافة ان تصير خطبتاهما مناظرة شخصية مبطنة بما لا يحب لهما اصدقاؤهما . ولكنهما ، غفر الله لهما واوسع لهما في رحمته ، تصالحا بعد ذلك ، وانما بقي في القلب بقية من المرارة .

بعض صفات جبران

كان جبران طيب القلب رقيق العاطفة ، صادق المودة لم يخن في حياته صديقاً . ولم ينكث لاحد عهداً . عاب عليه بعضهم الشذوذ احياناً . وانا على يقين من انه لم يقصد الشذوذ . ولكن خياله الحاد كثيراً ما كان يؤثر فيه تأثير الخمرة . وقد عرفته في مواقف كثيرة تدفقت عليه بها الالحان فغص بها ولم يتمكن عندها من التعبير عنها لا لفظاً ولا كتابة . واذا صح انه قال مرة « انه ولد في بلاد الهند » فعندي انه قال هذا القول من قبيل المجاز كأنه اراد ان يقول انه ابن العالم كله ، ولم يحسن التعبير . وليس من قبيل التنصل من لبنانيته . فقد كان جبران فخوراً جداً بلبنان ولبنانيته . واظنه الوحيد بين ادباء الرابطة الذين لم يتجنسوا بالجنسية الاميركية ! .

جبران والانتقاد

من الغرابة ان جبران على الرغم من رحابة صدره ورحابة عقله كان يكره انتقاد الناس اياه ، كرهاً شديداً ، ويتألم منه غاية الالم ، حتى وان كان مصدره الحاسدون والمتعنتون . وكان من اكره الانتقاد عليه انتقاد اللغويين . وعندي ان سبب نقمة جبران الحقيقي هو ثورته على الجهل والتعنت والرجعة والتعصب وغيرته على رسالته الروحية التي كان يؤمن بها ايمان المسيحي بسر التجسد والمسلم برسالة محمد . وكان رقيق العاطفة سريع التأثر يترقرق

خمرة ونغم !

●

في ظلال الايام . . . جلست أتحدث الى نفسي . . .
وكان الليل يحتضر !
قلت لنفسي وقد سرت في صوتي رعشة :
– يا نفسي . . . ارى في عينيك ابتسامة منهومة !
قالت وقد تمشت في صوتها نشوة :
– ان في كأسي خمرة . . !
صحت في دهش وعجب . . .
– خمرة ! . . . أية خمرة ؟
همست في بهجة وغنج . . .
– لم أشرب منها غير الرائحة . . !
ثم انداحت من ثغرها قهقهة ملساء قبل أن تضيف :
– انها خمرتك ! . . . خمرة لا تشرب بكأس !
وصمتُ فترة ثم قلت بصوت يصطك :
– يا نفس . . . أرى شفتيك لا تترنمان بالنشيد الابيض !
قالت وعيناها تحدقان في منبثق الفجر :
– لانني وجدته نشيداً أعمى يكرع السراب !
صرخت في صوت متجهم :
– انه نشيدي . . . نشيد الناس !
قالت في صوت شامخ :
– انه نشيد الشفاه التي لا تبصر . . .
والناس لا يبصرون لان الجبان لا يبصر !
قلت ولساني يلهث :
– وماذا ستفعلين يا نفس ؟ !
ضحكت وقد أرخت أهدابها ، ثم قالت :
– سأشرب من كأسي الواسعة خمرة من فحم . . !
– ثم ماذا ؟
– وسأعزف على قيثارتي الحية نغماً من نار . . !
وتولت عني تتثنى وهي تهمس . . .
– . . . خمرة سوداء ! . . ونغم أحمر ! . .
زهرة لا تموت في حقل من الشوك !
وأطرقتُ . . . ثم سرت خلفها . . . وكان الليل يولد . . !

بغداد — يحيى علي النجار

الدمع في عينيه لدى اقل مناسبة . واني في حياتي كلها لم الق انساناً اسرع الى ذرف الدمع من جبران خليل جبران . فقد كان مرهف الاحساس لدرجة قصوى .

جبران النديم

اما جبران الرفيق والنديم فلم يكن في الدنيا احلى منه ولا اخف منه ظلاً ، فمتى دارت الكأس وجلسنا نتنادم اشرق وجهه الملائكي بنور المحبة والبهجة فبدأ محاطاً بهالة من السحر والفتنة . وكان يساهم في تبادل الدعابة والنكات وكان عفيف اللسان . كنا جميعاً – باستثناء ميشا النعيمة – نتناسى عفة اللسان احياناً ، ولا سيما اذا اقتضت النكتة ذلك . اما جبران فلم اسمعه طوال صداقة ثلاثين سنة يتفوه بكلمة واحدة تستحي العذراء المحتشمة ان تتلفظ بها . وكانت تروق له نكات رشيد ايوب ، امير الندماء وزين المجالس ، واذ كان جبران يشارك فيها كان رشيد ايوب يلتفت اليه متظاهراً بالغضب ويصيح : « وانت « كمان » يا عميد كيت وكيت » فيغرق جبران في الضحك ويلذ له سماع تلك الشتائم الحلوة من فم الدرويش الحبيب النديم الذي لن تخلق الايام له خلفاً .

حب جبران لرفاقه

اني انس لا انس وجه جبران حين كان يقرأ علينا احد الرفاق مقالاً او قصيدة قد اتمها حديثاً واعجبت جبراناً فكان في ذلك الموقف فرحاً معتزاً شأنه شأن الام تراقب خطوات طفلها الاولى .

كان جبران يحب رفاقه جميعهم ، ولكني ارجح ان اقربهم الى قلبه الكريم كان نسيب عريضة فعبد المسيح حداد . وقد اختصر اسم عبد المسيح فكان يدعوه « عبدول » وكان شديد الاعجاب بعبقرية نسيب وغزارة علمه ودماثة اخلاقه .

***

تلك ايام هنيئة حلوة مرت مرور احلام الشباب ، بين ثلوج الشتاء المتراكمة ، واسأل نفسي : « أحقيقة كانت جميلة ولذيذة . لا يزال طعمها في فمي وبلسمها في قلبي » .

في ذمة الله من تولى من اخواني الاحبة .

وفي حفظ الله من بقي منهم حياً يفيد الانسانية بثمرات قلبه وعقله .

نيويورك — وليم كاتسفليس

ابطال الرواية

بقلم الدكتور زكي المحاسني
استاذ في كلية الآداب بالجامعة السورية

☆

يبقى البطل الى آخر الرواية كما يبقى الشاه في لعبة الشطرنج. انه ليظل خافقاً في الحياة، لاعباً في دوره يخرج من مأزق ليدخل في مأزق حتى يكل او يمل، وحتى تأخذه الصروف، او تكبته الهموم. وعند ذلك يترامى على نفسه وقد رمى سلاحه فسلم امره، او ابى التسليم فغادر الوجود رافع الرأس عظماً.

على ذلك كانت تجول خواطري مطوفة بروايات قرأتها او رأيتها او سمعتها، فيها ابطال وشخوص عاشوا حيناً من الدهر كما نعيش، وهزتهم شجون الحياة كما تهزنا، وكان لهم افراح واتراح على نحو ما لنا من المباهج والفجائع. ويعجبنا الشخوص الذين يجولون في الروايات كما نجول، وتتمعض نفوسنا فنكره اناساً لم نكن نعرفهم قبل ان نقرأ سيرتهم في القصص التي بين ايدينا.

ان هذا الرجل الذي قرأت صفحة من حياته اقض عليّ مضجعي، وظلت صورته تلازمني أياماً، اني اكرهه كرهاً، وكداً، واتمنى ان لم أكن قرأت جانباً من حكايته في رواية من الروايات. وفيم اصنع معه ذلك لو لم اكن قد ركب في طباعي الكره لمثل هذا المرء. فأنا حيثما وجدت هذا الوصف في اية رواية يتلبسني ذلك الشعور بالكراهية. وما تلوت اخباراً عن النساء اللواتي عشن في دنيا زوجية جاحمة الا اخذني الاشفاق، وانسكبت فيّ المرحمة، وما وقفت في هذه القصص على فتيات كن ازاهير المجتمع لكن اثرة المتاع الزمتهن ازواجاً كباراً موسرين، الا حل بقلبي عليهن الشجن. وكذلك يكون شأني ساعة الرضا او الغضب حين الم بحوادث الفقر او الغنى.

وكنت افكر في شأن هذه القصص التي يكتبها الملهمون فتفعل فينا هذه الافاعيل. انها ضرب من السحر يتسلل الى انفسنا فيخرج بنا من حياتنا اليومية الى ماض بعيد او يوم قريب، فتخلع عن ارواحنا حجبها، وتمضي بها هفهافة مشرقة نحو هذه المثل التي نجدها في الروايات، فنبتسم لبطل ونتجهم لآخر. وكنت وانا افكر في هذا الخلق والابداع اعجب لخلود اولئك العبقريين الذين وسموا آثارهم بمياسم الحقيقة وطبعوها بطوابع الواقع، فيصح عندي ان الرواية ينبغي ان تأخذ اول ما تأخذ من الحياة، وان تمثل فيها هذه الحياة اصدق تمثيل. وقد وجدت المصداق على ذلك يوم قرأت في صحيفة «كرنكوار» مقالاً لمارسيل بريفو. وكنت متولعاً بهذا الكاتب الذي حلل الانفس البشرية وغمس قلمه في حياة النساء والرجال على وجه من اناقة الاسلوب وصفاء الديباجة، وكانت له في صحيفة كرنكوار في كل عدد اسبوعي مقالة، وقد شكا هذا الكاتب الناقد كثير من الادباء المحدثين فقد كان جواراً بمباضع نقده على دمامل الادب، وكانت لا تأخذه ممالأة ولا مجاملة ولست انسى مجاماته الادبية عن صديقه الشاعر العظيم «بول فاليري» حين اقام القوم عليه النكير بسبب غموضه في شعره، وعماياته في كتاباته.

فمن جملة ما قرأت من مقالات «مارسيل بريفو» انه احب ان ينحدر الى الجنوب من فرنسا فركب قطار الجنوب، وفيما كان يسعى الى القطار اخذت عينه كتاباً مسنداً الى رف المكتبة التي في المحطة فاشتراه دون ان يتفرس فيه. ومن قبل ان يكترث

يؤلفه ، وكانت بغيته ان يشتري اي كتاب من نوع القصص ليقضي به سفرته فلا يسأم تسرد الدرب وجلبة القطار .

وما يكاد الكاتب القاص الاشهر يضع نظارته الواحدة على عينه الواحدة فيقرأ صفحة حتى تنطلق اساريره وينساق امام السطور يتلوها بالتهام ومحبة ، وينساب به القطار مدوياً من غير ان يشعر بدويه ملتفاً في المنعطفات ، عالياً على الهضبات وهو بكل ذلك غير شاعر ، وانما كان غاطساً في اكتناه الجمال من هذا الكتاب . وكان بين حين وحين يطبق الكتاب لا ليترك القراءة وانما ليقرأ مرة تلو مرة اسم المؤلف الذي يجهله كل الجهل ، فهو لم يسمع به حتى ذلك النهار ، ووافق انتهاء الاكاديمي الخالد من رواية المؤلف المغمور بانتهاء المرحلة التي كان عليه ان يقطعها . لكنه لم يرسل القصة ارسالاً ، وانما اطبقها بعناية ووضعها بين اوراقه التي في حقيبته ، كأنها اثر مكتشف نفيس ، ثم راح بُعيد ايام يكتب مقالاً خاصاً بهذا المؤلف المغمور الذي منّ الله عليه بالشهرة بعد حين على يدي مارسيل بريفو ، وانفتحت امامه ابواب الصحف الكبرى ودور النشر العزيز منالها على الادباء المبتدئين .

يقول مارسيل بريفو انني ما كدت اقرأ اول رواية هذا الاديب حتى رحت ممعناً في اثره ، مدمناً القراءة قصته ، لقد كانت كل صفحة من صفحاته مشابهة لسيرتي . كذلك كنت انا ، فيا لله كيف يتفق ان يكتب انسان لا يعرفني في اموراً من صنيع آخر كأنها اموري واحوالي . من هاهنا سحرني هذا الاديب الجديد ، ومن ها هنا اشهد انه سيكون احد اعلام القصة الحديثة .

الى هنا ينتهي كلامي على مرسيل بريفو ، وتشوقني القصة ويعجبني فنها . ولو كنت قصصياً لتكلمت كثيراً عن الناس ، في افراحهم واتراحهم ، وشؤونهم وشجونهم . كنت اجعلهم سبيلاً الى الوصف ، ووسيلة للنقد ، وانزل شخوصهم في قصصي . فمنهم من يكون حدثاً في الوجود ، ومنهم من يكون خيالاً في الوهم . انطقهم على صفحاتي واحاورهم بلسان قلمي ، ثم اهجمهم في اسرة سطوري ، وغرف كتبي فاذا هم رهن الزمن ، قرب يد تمتد اليهم فتثيرهم من مكانهم ! ليقرأ صاحب هذه اليد الممدودة اليهم من سيرة حياته ، فصلاً او بعض فصل ، يرى فيه نفسه او يعرف صورة صديقه او عدوه ، ومن عذيري غير هؤلاء الشخوص في دنيا حقيقتهم او عالم وهمهم . سيكون لهم فضل علي اذ يضيفونني عند حوادثهم حيناً او بعض حين ، فأحل في دخائلهم او امضي متقرياً مشاعرهم ، سيدلونني واحداً بعد واحد على ارواحهم وخبايثها . انهم مداد قلمي ، ولو خلا منهم الدهر ، لجفت ينابيع القول عندي ، ولكنني في كل ذلك لن اوذي احداً منهم ، ولن اسيء الى واحد ، سأمسهم مساً رفيقاً مطمئناً كطبيب حنون ، لاني احب ان احمل قلمي غير ملطخ بالدم ، وبذلك فلن اخشى احداً يأخذ بتلابيبي فيقول لي : قلت عني فتقولت . . .

تلك هموم فنية من دنيا القصة ، اطافت بخاطري فأحببت ان اكتب عنها واذكر مثل هذه الهموم واروع منها كالتي المت بصديقي القاص المشهور الاستاذ كرم ملحم كرم ، اذ اخذ بتلابيبه احد القسوس . فانه لقي نجوة من همّ ذات ضحى ، اذا بقس كثيف اللحية فضفاض الجلباب ، عليه المسوح يقف بدرب الاستاذ كرم فيأخذ عليه طريقه ، ثم يحدق فيه بعين جاحظة ، ويمسك بثوبه ثم يصرخ به :

— انت ألفت عني قصتك المسماة « بونا انطون » انا الاب انطون .

وقد روى لي الاديب اللبناني انه اجابه مترفقاً .

— ومن ادراك انني الفت عنك قصتي المسماة « بونا انطون » ؟

واستحر بينهما الجدل وكاد يحول الى خصام . فأشار على القس اعوانه ان يقيم الدعوى على الاستاذ كرم امام الحكام ففعل فجاء القاص وبطل الرواية فوقفا امام القاضي ، وازدحم القوم ليقفوا على الحادث الجلل ، ومن ذلك اليوم وضع الخلود ميسمه على هذه القصة .

فقلت لصديقي المؤلف : صدق شاعرنا الذي يقول : « كاد المريب بأن يقول خذوني » .

ومن اجل هذا الحادث ، مر بخاطري اشباه له ونظائر في حياة الاشياخ ، فذكرت كثيراً من الروائيين فيما وضعوه عن ابطال قصصهم الذين البسوهم لبوس الحياة الحقة ، واشهدوهم حوادث من الواقع . ومن قبل ذلك اشفقت على القاص « اونوري دو بالزاك » حين جاءته امرأة ثائرة مرغية مزبدة ، فصفقت بيدها على مائدة كتبه حتى اطارت اقلامه وقالت له وهي مفجوعة راعدة :

— فيمَ كتبت للناس روايتك عني ؟

فبهت الكاتب الذي ملأ الدنيا وشغل الناس برواياته في القرن التاسع عشر ، وأجابها برفق :

— ومن تكونين ايتها المرأة الغضبى ؟

فقالت له ، وتنهيدة تخمد انفاسها :

— انا « إستير » ثم جعلت تنتحب ! . .

دمشق — الدكتور زكي المحاسني

قاتل امه

بقلم رياض طه

من وراء التلال والهضاب التي تسند منكب « بعلبك » وتلامس خصر سهل « البقاع » — من وراء تلك الهامات الصلعاء ، برز رجل اشعث ، ملثم بالكوفية والعقال ومتجلبب بسروال اسود ، يسير مقاوماً عتو العاصفة وعيناه ترمقان الافق البعيد فـلا يرف لهما جفن ولا تأخذان الارض حيث كانت قدماه تتعثران بالصخور والحجـارة المتزاق بعض منها على بعض في اصداء دمدمة تموت في زمجرة الرياح .

وانحدر ذلك المارد ، بخطى عصبية مستعجلة ، الى السهل ، ويمم وجهه شطر مخفر « طليا » .

ولم يكن الا بعض ساعة حتى انثنى ذاك القروي المرعب يدخل المخفر ، فيتهيبه رجال الدرك ويحسبونه يقع اليهم سالباً او متقحماً — فقد تعودوا ذاك من مثله — فيتحفزون على حذر لالقاء القبض عليه ، ولكنهم يتراجعون بدهش واستغراب عندما يرونه يرمي ببندقيته عنـد اقدامهم صائحاً بلهجة المستغيث :

— احبسوني . . اعدموني . . انا مجرم !

***

وها هو « حسن ضرغام » يقاسي الآلام في « سجن الرمل » في « زنزان » ضيق ، بعد ان أعيى المساجين شذوذ اطواره وغرابة مسلكه .

انها ليلة ليلاء : فالمرقد الخشن ينبو به ، واذا به ، بين الفينة والفينة ، ينتفض فجأة من ضجعته ، ويهب في ذعر . . انه صوت انشج بحنان عميق مؤثر ما يني يضج في اذنيه : — حسن . ابني . آه . قتلتني . . قتلتني . . . انا امك !

فيستند الى الجدار ، ويحس كأن ظهره انقصم وعزمه انهد ، وينوء برأسه فيمسكه براحتيه ، ويضغط عـلى صدغيه ضغطاً شديداً . . ويعود الصوت الخفي :

— . قتلتني . قتلتني . انا امك !

« انا امك » . الكلمة التي تجلجل دائماً في مسمعه وتعتمل في نفسه .

فينقلب وقد تراخت اعصابه وتلاشت قواه ، ينطرح عـلى الارض ، في لغب واعيـاء ، ويرسل زفرة حرى من اعماقه ، موصولة النأمة بصوت ابح :

— امي . . . امي . . . امي !

ويمسح الدموع عن عينيه ، بظهر يده ، فيبدو له امرأة باكية تمد له ذراعيها . . وغلبته الدموع فطفق ينتحب انتحـاباً مريراً ، وحجب عينيه بيده كي لا يرى . ولكنه ما زال يرى امرأة تصرخ وتستغيث وتقول بصوت باك : — قتلتني . . . انا امك .

ومضى الالم يغرز انيابه في سويداء قلبه ، وراحت الحسرة تعوي في غور ضميره ، وزحمت بصره الصور والاشباح ، وغص سمعه بالاصوات والصرخات . والفى نفسه تتخبط في لجج العذاب الصاخب .

لقد قتل امه . امه التي انتزعته من كبدها . امه التي حملته جنيناً ، وحملته رضيعاً ، وحملته طفلاً ، وحملته شاباً . امه التي كانت وحدها تحنو عليه وتؤثره على نفسها . امه التي كانت تبعد اللقمة عن فمها لتضعها في فمه . الدنيا أم . لقد فقد الدنيا . كيف اقدم على قتلها ؟ . كيف جرؤ على قتلها ؟ . . . واسترسل في تساؤله ، ولكن ذهنه اشرق فجأة وانقشع ظل الغمام الحالك عن مخيلته . .

كيف قتلها ؟ هل قتلها هو ؟ هكذا يعتقد ! بل هكذا يحسب . . .

انه لا يذكر كيف جرت الفاجعة . . وانما هو يتذكر بعض معالمها ، ولكنه لا يذكر كيف قتل امه . او كيف قتلت امه .

واضاءت اسارير « حسن » وتألقت بصيرته بوميض كأنه اول خيط من اشعاع الامل . . وتفتح قلبه المعتم فانتفض في مثل وثبة الفرح .

انه لا يذكر كيف قتل امه . . قد لا يكون هو قاتل امه .

وكما يتشبث الغريق بخشبة النجاة ، تشبث « حسن » بهذه الاماضة التي برقت فجأة في رأسه ، بعد ظلام دامس .

اذن . من هو قاتل امه ؟ . من كان غيره امامها عندما اسلمت الروح ؟ .

انه يذكر بوضوح انه كان يشاجرها ، ويذكر انه لطمهـا بقبضته اليمنى على وجهها . شلت يمينه !

ويذكر انه تناول البندقية ليخيفها .

ويذكر ان ثورة عصبية انتابته ، فجأة ، فاطلق النار . ويذكر انه سمع امه تصرخ باكية مستغيثة بقولها : حسن .



ابني . آه . قتلتني . قتلتني . انا امك ! .

انه لا يذكر انه اراد اطلاق الرصاص على امه . ولا يذكر انه فكر بقتلها . ولا يذكر انه كان ينوي ايذاءها .

الملعونة « حمدة » هي السبب . لولاها لم ينازع امه . لولاها لم يغاضبها . لولاها لم يجرؤ يوماً على ان ينتهرها .

تباً لها ! . تلك هي الافعى السامة .

هي التي كانت توغر صدره على امه وتحرضه على ضربها وقهرها . هي التي كانت تبغض امه وتحمله على بغضها . لان امه كانت تنهاه عن الزواج منها ، وتنهاه عن معاشرتها ، وتضرع اليه ان يتقي شرها .

لقد كانت امه تقول له دائماً ان حمدة فتاة خبيثة ، شريرة ، همها اصطياد القلوب والعبث بها وتحريض فتيان « بريتال » على السلب والنهب والقتل لتتلذذ بمنظر الجريمة وترضي غريزتها الاجرامية الخطرة . .

لا . لا . انه لم يقتل امه . انه كان واهماً عندما ظن انه فعل . لم يكن يملك وعيه .

واستمرت الامواج الصاخبة تتدافع في رأس حسن وتتجاذبه طوال الليل .

***

واطل الصباح ، وجيء « لحسن » بطعامه الاسود فأتى عليه المرة الاولى . انه يشعر بنفسه مستجيبة الى الراحة هذا اليوم .

واقبل محاميه متهللا ، وبادره بقوله : — اما تزال تعتقد بانك انت قاتل امك ؟ .

فتلجلج لسان « حسن » ثم قال : لا ادري لماذا اشعر اليوم بانني لم اقتلها .

فتبسم المحامي ، وربت على كتف « حسن » بقوة ، قائلا :
— لا تخف . . انت لم تقتل . — ولكن . . من القاتل اذن ؟

— هذا لا يهمك . يجب ان تؤمن كل الايمان بانك بريء . وغداً ستمثل امام المحكمة ، فاياك وان تتردد . . قل ، بكل ثقة واطمئنان ، هذه العبارة بحرفيتها : « كنت اتشاجر مع امي فتناولت البندقية لاخوفها . وفيما كنت في ثورة عصبية عنيفة افقدتني وعيي ، سمعت طلقاً نارياً ، وسمعت امي تصرخ . وكانت يدي تتحرك برصاص بندقيتي في الجو بصورة لاشعورية . . ورأيت امي تتخبط في دمائها . . وسمعتها تقول قائلة انني قتلتها . فحسبت انني انا القاتل حقاً ، واستسلمت الى السلطة .

وبهت « حسن » ، وفغر فاه ، واخذ يفكر ساهم النظر شارد اللب .
— اعد على مسمعي ما قلته لك .

وأعاد حسن ما قاله محاميه ، فصافحه هذا بشدة قائلا :
— احفظ ذلك جيداً . ولا تخش بأساً . سيحكم عليك غداً بالبراءة .

وذهب المحامي وبقي « حسن » مشدوهاً . ان ما سرده محاميه يبدو صحيحاً . اجل ان ذلك لصحيح . اذن . . . غداً ستعلن براءته وتطلق حريته . غداً سيخرج من السجن . الى اين ؟ الى قبر امه ؟ الى المنزل المهجور ؟ الى القرية الساخرة الشامتة ؟ الى البكاء والنواح ؟ . . .

لا . انه ما تعود الصبر على الضيم . ما تعود الجبانة . سوف يثأر لامه . سيذهب اليها . هي . الى حمدة . هي التي تكره امه . هي التي انتصبت في حياته شيطاناً ، فاغرته بفتنتها ، وافسدته بمكرها ، فاخرجته عن طاعة امه ، وعن حبها ، وعن احترامها ، وجعلت منه ابناً عاقاً شرساً .

اجل هو قاتل امه . لقد قتلها قبل ان تموت . قتلها عندما تخلى عن امومتها وتعلق بحب معشوقته الشريرة .

سوف يثأر لامه . سوف يقتل حمدة ! انه لا يريد ان يراها على قيد الحياة وقد ماتت امه .

وهدأت نفس « حسن » مطمئنة الى العزم الذي عقده والعهد الذي قطعه على نفسه . ثم ما لبث ان وجف جنانه وارتجفت يداه . سيقتل ؟ . كيف يقتل ؟ . انه ليس مجرماً . انه يكره الاجرام ، يخاف الاجرام ، يحتقر الاجرام . سيعود اذن الى السجن ؟ . سيعود الى « الزنزان » ؟ . سيحكم عليه بالسجن الابدي ؟ . . بالاشغال الشاقة ؟ . بالاعدام ؟ . « بالشنق » ؟ ! . وفترت عزائمه . وتقاص على نفسه ، مضطرباً ، مهموماً ، خائفاً .

***

وكان عصر اليوم التالي يداعب بشمسه الفاترة قرية « بريتال » عندما كان « حسن » ينظر اليها ، مغتبطاً مبتهجاً ، وهو في سيارة تحبو على الطريق الجبلية ، الوعرة ، وفي يده جريدة يرنو اليها ، بين الحين والحين ، ليمعن النظر برؤية رسمه ورسم « حمدة » ، وليعيد قراءة العناوين البارزة :

« تهنئة حسن ضرغام والحكم بالاعدام على حمدة عساف » .

« جناية غامضة غريبة يكشفها التقرير الطبي » .

« لولا اخراج رصاصة مسدس من قلب القتيلة لما ظهرت الحقيقة » .

رياض طه

المعارف الجيولوجية عند ابن سينا

بقلم الدكتور محمد يحيى الهاشمي

☆

ان علم* الجيولوجيا هو في الحقيقة علم حديث، ومع ذلك فأن المعارف الجيولوجية هي قديمة في حد ذاتها، فقد بحث القدماء في علة تكوّن الارض وما تحويه من مواد، ولقد نحا في هذا الموضوع قدماء اليونان ناحية فلسفية ميتافيزيكية، قلما استندت على الواقع — . وفي الآداب العربية نعثر على نتف متفرقة في هذه المادة . وقد بيّن البارون كارا دى فو في اثره الهام عن مفكري الاسلام بعض معلومات جيولوجية عن الجاحظ في مجموعة رسائله المنشورة في القاهرة عام ١٣٢٤ هـ . وكذلك فقد سبق لي تبيان المعلومات الجيولوجية لاخوان الصفاء في المبادلة الحادثة بين البحر والبر في المقال الافتتاحي الذي نشرته مجلة المجمع العلمي العربي « تشرين الاول ١٩٣٢ » الذي بينت فيه مبادىء نظرية تكون الصحراء ليوجنا والتر، وقد سبق المسعودي الاشارة الى تكوّن البحار في مروج الذهب اعتماداً على المعلم الاول ارسطوطاليس . وقد كنت اشرت الى ذلك ضمن دراسة عن تاريخ المينرالوجيا العربية .

اما ابن سينا نفسه (حسب المصادر التي هي في متناول الايدي) فلم يسبق الاشارة الى انه كان مدققاً جيولوجياً — . عرف العالم ابن سينا كفيلسوف فذ وطبيب بارع ، بقي قانونه العمدة في الطب في اوروبا حتى القرن السابع عشر . كذلك عرف كرجل دولة وعالم طبيعي اشتغل في دحض نظرية الكيمياء القديمة الا وهي انقلاب العناصر التي لعبت دورها في القرون الوسطى ، والتي بعثت اليوم من جديد ولكن على اساس الاختبار والتجربة . ويقول صاحب مقال تراث الحضارة العربية في جريدة الاونسكو في شهر نيسان من هذه السنة : « كان النشاط البشري اجتمع في شخص هذا العالم الذي لا يشق له غبار » . ورغم كل ذلك فاننا لم نسمع عن اي دراسة عن المعارف الجيولوجية لهذه العبقرية الخالدة . ولكننا اذا درسنا كتاب الشفاء بامعان وطالعنا الفن الخامس من الطبيعيات التي تفضل كل من ارك يحيى هولميارد ومندفيل ونشره في باريس منذ واحد وعشرين عاماً ، نرى معلومات جيولوجية لا بأس بها ، وذلك في المقالتين عن الآثار العلمية مشتملة على عالم الكائنات التي لا نفس لها من المعادن من جرم الافلاك . وما يهمنا هنا المقالة الاولى التي تبين ما يحدث بناحية الارض .

يبتدىء ابن سينا في فصل الجبال بتحقيق حال تكوّنها بكيفية تكوّن الحجارة وينتقل بعد ذلك الى التابع وعلة وجودها ، تلك القضية التي لم يقل العلماء بعد من لفظ الكلمة الاخيرة في شأنها، لانه يوجد لكل دليل ما يناقضه . ويعلل حدوث الحجارة عن طريق الرسوب والجفاف او عن طريق تجمد الماء ، ويأتي في الاول بدليل يقول فيه : « وقد شاهدنا في طفولتنا مواضع كان فيها الطين الذي يغسل فيه الرأس وذلك في شط جيحون ، ثم شاهدناه وقد تحجر حجراً رخواً وذلك في مدة قريبة من ثلاث وعشرين سنة » . اما في الثاني فيزعم انه يتكون من الماء السيال ، ويقصد بذلك على ما يظهر الماء الكلسي المشبع بحمض الفحم الذي يسبب حدوث الصواعد والنوازل في المغارات الكلسية مثل مغارتي قاديشا وافقا في لبنان . ويرى ابن سينا ان نوع هذا التشكل يكون على

* اذيع هذا الحديث من محطة الشرق الادنى .

وجهين : احدهما ان يجمد الماء كما يقطر او كما يسيل برمته ، وقد وصف ذلك البيروني المعاصر لابن سينا في كتابه القيم «الجماهر في معرفة الجواهر» الذي نشر منذ مدة قريبة في حيدر آباد – الهند ، لا ندري ايهما اسبق في الوصف . والثاني على رأي ابن سينا ان يرسب منه في سيلانه شيء يلزم وجه مسيله . وقد شاهد ابن سينا مياهاً تسيل فما يقطر منها على موضع معلوم ينعقد حجراً او حصى مختلفة الالوان . وفيما يذكره انه شاهد ماء قاطراً اذا اخذ لم يجمد واذا انصب على ارض حجرية تقرب من مسيله انعقد في الحال حجراً ، ولعل ما يذكره في هذا الصدد ناتج عن التفاعلات الكيميائية .

ليست هذه التدقيقات بالمهمة لاننا نطالعها ايضاً عند غيره من العلماء ، اما المهمة في نظرنا فهي ان نرى عند عالمنا هذا لاول مرة على ما يظهر تعليلاً منطقياً لكيفية تشكل المستحاثات ، تلك الآثار الحيوانية والنباتية التي تلعب اليوم دوراً كبيراً في الجيولوجيا ، اذ بواسطة هذه الآثار يقدر عمر الارض وتقسم الاحقاب الجيولوجية بادوارها المختلفة وطبقاتها المتباينة ، وعلى هديها نستدل على وجود النفط والفحم الحجري – المادتين الهامتين في الصناعة العصرية – فبينما كانت المتحجرات تعتبر حتى القرن الثامن عشر اشياء اوجدتها المصادفة او خلقها مكر الشيطان لتضليل المؤمنين عرف ابن سينا قبل سبعة قرون ان تشكلها كان طبيعياً ، فلو ان العلماء التفتوا الى ما خلفه هذا العالم من الآثار الطبيعية لتقدم هذا العلم اكثر مما عليه الآن ، لاننا نجده يقول في هذا الكتاب : « وان كان ما يحكى من تحجر حيوان او نبات صحيحاً فالسبب فيه شدة قوة معدنية محجرة ، فيحدث في بعض البقاع الحجرية او ينفصل دفعة من الارض في الزلازل والخسوف فيتحجر ما يلقاه ، وانه ليس من استحالة الاجسام الحيوانية والنباتية ابعد من استحالة المياه ، ولا من الممتنع في المركبات ان يغلب عليه قوة عنصر واحد يستحيل اليه ، لان كل واحد من العناصر التي فيها مما ليس من جنس ذلك العنصر فشأنه ان يستحيل الى ذلك العنصر ، لذلك تستحيل الاجسام الواقعة في الملاحات الى الملح والاجسام الواقعة في الحريق الى النار . واما السرعة والابطاء في الاستحالة فأمر يجوز ان يختلف ايضاً حسب القوى المختلفة ، فأن كانت شديدة جداً احالت في زمن يسير . وفي بلاد العرب حرة كل من يسكنها واي جسم يقع فيها يتلون بلونها .

اذا حللنا هذه الآراء على ضوء العلم الحديث ، نجدها طبعاً ساذجة ولا تفي بحاجات العصر ، ولكن تقدير جهود الاوائل لا يكون نظراً للآراء الخاطئة والصائبة الموجودة في كتبهم قياساً على العصر الحديث ، بل بتلك الآراء المبتكرة التي يسمو بها قائلها على معاصريه ، والمساهمة الفعالة التي تفضي الى تقدم العلوم والافكار وعمل خطوة جريئة في سبيل التحرر العقلي . جرياً على هذه القاعدة يكون ابن سينا لم يبين فكرة مبتكرة سما فيها على معاصريه فحسب ، بل على الاجيال التي اتت من بعده . ولا ندري مدى تأثير هذه الفكرة في عصور النهضة ، ولكننا نعلم حق المعرفة ان ولادة علم الآثار الحياتية لم يكن الا عندما طرح المفكرون آراء العصور المظلمة واخذوا يعللون المتحجرات تعليلاً منطقياً واقعياً . فأما ان يكون المفكرون العصريون قد سلكوا طريقاً مستقلاً او انهم تنوروا بأفكار ابن سينا ، وعلى كلا الفرضين فلابن سينا فضل الاسبقية في هذا المضمار . واننا لنجده بعد ان يستقريء المتحجرات المعروفة لديه يصدر هذا الحكم : «يشبه أن تكون هذه المعمورة قد كانت في سالف الايام غير معمورة بل مغمورة في البحار فتحجرت» ، ويستدل على ذلك بوجود كثير من الاحجار في الجبال اذا تكسرت ظهر فيها اجزاء الحيوانات المائية كالاصداف وغيرها.

ويعلل الارتفاعات التي تحدث بسببين : عرضي وذاتي . اما السبب بالذات فعلى رأيه : « كما يتفق عند كثير من الزلازل القوية ان يرفع الريح الفاعلة للزلزلة طائفة من الارض ويحدث رابية من الروابي دفعة ، واما الذي في العرض فأن يعرض لبعض الاجزاء من الارض انحفار دون بعض بأن تكون رياح نسافة او مياه حفارة تحدث حركة على جزء من الارض دون جزء ، فيتحفر ما يسيل عليه ويبقى ما لا يسيل رابياً ، ثم لا تزال السيول تغوص في الحفر الى ان يغور غوراً شديداً ويبقى ما انحفر شاهقاً » . يذكرنا هذا التعليل بالتعليل العصري بأن التغيرات التي تطرأ على الارض اما ان تكون باطنية المنشأ كالزلزال الذي لا يذكره ابن سينا واما ان تكون سطحية المنشأ كالرياح والسيول ، وهو يرى ايضاً انه ربما كان الماء والريح متفق الفيضان الا ان الاجزاء من الارض تكون مختلفة ، فيكون بعضها ليناً وبعضها حجرياً ، فينحفر الترابي اللين ويبقى الحجري مرتفعاً ، ثم لا يزال ذلك السيل ينحفر وينحفر على الايام ويتسع ويبقى النائي ، وكلما انحسرت عنه الارض ، كان شهوقه اكثر . فتكون الجبال اذن نظراً لتدقيقات فيلسوفنا من احد اسباب تكون الحجارة (كما يبين ذلك صراحة) . واما كثرة الاحجار

فيعللها بكثرة ما يشتمل عليه البحر من الطين ثم انكشافه عنه . ويقول في هذا الصدد : « اذا تأملت اكثر الجبال رأيت الانحفار فيه بينها متولداً من السيول ، ولكن ذلك انما تم وكان في مدد كثيرة ، فلم يبق لكل سيل اثره ، بل انما يرى اثر الاقرب منها عهداً . واكثر الجبال الآن انما هي في الارضاض والتفتت ، وذلك لان عهد نشوءها وتكونها انما كان مع انكشاف الماء عنها يسيراً . والآن انها في سلطان التفتت الى ما شاء الله » .

ويعلل العروق الطينية بعدة اسباب : ١) انها ليست من صميم مادة التحجر ، لكنها من جهة ما تفتت من الجبال وامتلأ في الاودية والفجاج ، وسالت عليه المياه ورطبته ، ٢) انه تخلل من الطينة الجيدة ، ٣) ان يكون القديم من طين البحر غير متفق الجوهر فيكون منه ما يتحجر تحجراً ومنه ما يسترخي تحجره لكيفية ما غالبة فيه . وينوه ايضاً انه « يجوز ان للبحر ايضاً ان يفيض قليلاً قليلاً على بر مختلط من سهل وجبل ثم ينصب عنه ، فيعرض للسهل منه ان يستحيل طيناً ولا يعرض ذلك للجبل ، واذا استحال طيناً كان مستعداً لان يتحجر عند الانكشاف ويكون تحجره تحجراً شافياً قوياً ، واذا وقع الانكشاف على ما تحجر فربما يكون المتحجر القديم في حد ما استعد للتفتت ، ويجوز ان يكون عرض له عكس ما عرض للتربة . » يجاب دقة نظرنا ابن سينا على وجود بعض جبال كأنها منضودة سافاً سافاً ، ويرى انه يجوز ان ارتكم ساف اولاً ثم حدث بعده في مدة اخرى ساف آخر ارتكم وكان قد سال على جسم من خلاف جوهره فصار حائلاً بينه وبين الساف الآخر ، فلما تحجرت المادة ، عرض للحائل ان انشق وانتشر عما بين السافين . وارض البحر على زعمه قد تكون طينية رسوبية ؛ وقد تكون طينية قديمة ، ويشبه ان يكون ما يعرض له انفصال الارهاص من الجبال رسوبياً .

هكذا يعلل ابن سينا تكون الجبال وفقاً للترسبات ، بيدانه نجده لا يطمئن تمام الاطمئنان لانفصال الارهاص ولعله يقصد في ذلك تكون الطيات التي لم يعط العلم الحديث عنها اللثام بعد ، واننا لنعجب جد العجب حين نجد ابن سينا لا يطمئن للتعليل الرسوبي افلا يقول « هكذا كان » او « هكذا يكون » بل يقول « يشبه ان يكون » . وسنضرب صفحاً عن نظرياته في تكون المعدنيات من الاحجار والذائبات (يقصد بذلك المعادن القابلة للصهر كالحديد والنحاس والرصاص) وعن تكون الكباريت والاملاح ، فليس فيها على ما وردت في كتاب الشفاء على ما يظهر ابتكار خاص ، لان نظرية تكون المعادن من الزئبق والكبريت التي يذكرها ابن سينا والتي ورد ذكرها عند علماء تقدموه ، ترجع الى قدماء اليونان . وفي معرض حديثه عن الحجارة يذكر كذلك تكون الحجارة من النار ولعله يعني بذلك الصخور الاندفاعية .

ان اهم ما يجاب نظرنا في كتاب الشفاء لابن سينا ذكر ظاهرة طبيعية في هذا الموضوع لم يهتد احد اليها ، ولم يوفق العلماء الى اكتشافها بصورة مستقلة الا في ازمنة متأخرة جداً . ان هذه الظاهرة حسب وصفه هي ما يلي : « كثيراً ما يحدث في الصواعق اجسام جديدة وحجرية بسبب ما يعرض للنارية ان تطفأ فتصير باردة يابسة ، وقد يقع في بلاد الترك في الصواعق والبروق اجسام معدنية على هيئة نصول السهام » .

دقق في هذه الظاهرة العلماء الافرنسيون مؤخراً في صحراء افريقيا كما جاء وصف ذلك في مصنفات الجمعية الافرنسية للمينرالوجيا في باريس عام ١٩٣١ ، وذكروا ان هناك تشكلات نصول سلسية معدنية حادثة من الصواعق عرفت باسم انبيب البرق او حسب التعبير الفني بالفلوغوريت . وعلى ذلك يكون ابن سينا هو السابق لهذا الكشف العصري . من اجل ذلك لا يكون لكتاب الشفاء قيمة تاريخية فحسب ، بل قيمة علمية عصرية ايضاً ، لانه ذكر لنا حادثة طبيعية غفل عنها العلماء في العصور الحوالي ، وكان العثور عليها اليوم يعد كشفاً جديداً . وان ما يذكره العلماء العصريون عن هذه التشكلات في صحراء افريقيا يشبه التشكلات الواردة عند ابن سينا في بوادي بلاد الترك اي تركستان . اذن ان في آثار ابن سينا رغم المعلومات الجمة التي استفاد منها العالم قروناً عديدة بعض دور لم تكتشف بعد ، ولو انها عرفت في الوقت المناسب لساهمت في تقدم العلوم اكثر من ذلك ، ولعجلت في بعض الكشوف العلمية — لهذا السبب نفسه يقتضي علينا ان لا نهمل هذه الآثار القيمة ، وما تدرينا ولعل في طياتها قضايا علمية عصرية غفل عنها التتبع الحديث ولو لم نفاجأ بهذه التحريات في صحراء افريقيا لعددنا وصف ابن سينا ضرباً من المستحيل . وهكذا كلما تقادم العهد كلما ظهرت آيات جديدة في تراثنا الخالد دالة على العمق الذي جبل عليه اسلافنا وعلى التتبع الجدي الذي كان رائدهم في حياتهم العلمية .

حلب — محمد يحيى الهاشمي

قلق الجيل

بقلم السيدة وداد سكاكيني

لكل جيل طابعه وخصائصه ، وأبرز طابع في الجيل الحاضر هذا القلق العنيف الذي يتجلى في صور حياته وثقافته ، انه لقلق روحي نبيل الاحساس والغاية ، يحفز النفوس الطامحة الى المثل العليا ، ويغريها بالتحرر والتطور .

ليس بدعاً ان يكون القلق طابعاً لهذا الجيل الذي استقبل الحياة في عهود مظلمة ظالمة ، كان بعضها مولود بعض ، عصفت فيها كوارث الحرب العالمية الاولى ، وحين شاء القدر ان يزيح الستار عن فصل جديد من مأساة الدهر الكبرى ، رأى الناس عهداً جديداً ازدحمت فيه ضروب التجدد والتحول في آفاق المعرفة والحضارة ، موسوماً بطابع سياسي خاص ، فكان في كل قطر من اقطار العرب يقظة ارتياب واضطراب ، واستوى الناس جميعاً بالقلق وان لم يتساووا في اسبابه ودواعيه او في مظاهره ومراميه ، ونَعِم قوم قليلًا ، وشقي آخرون كثيراً ، وتفتح وعي الجيل على قلق كان يبدو اثره كلما ازداد علمه ونما شعوره ، فكان اذا ضاق بسياسة الحاكم الغاشم او تبرم بالنظام المفروض تفلت منه حيناً ، فالتمس الراحة والحرية في مرافق العيش ، فاذا وجوه الرزق متجهة ، وتكاليف العصر ثقيلة باهظة ، فلا المكاسب دانية في الحياة العامة ولا الاسرة مواتية في الحياة الخاصة ، وقد تبدلت الاوضاع الاجتماعية والموازين الخلقية والادبية ، وتمازجت الثقافات وتضاربت الآراء ، فلا غرو ان ثار الجيل ثورته العاصفة ، وتنازعته مذاهب متعددة ومعضلات متعقدة ، فالوطن يستخلص حقوقه وينشد حريته ويقيم كرامته ، ويؤخذ هذا الجيل بالحملة الوطنية والحماسة القومية ، فيتنزى ويتأذى ، ويقتحم الخطر حيناً ، ويحجم احياناً ، لكنه يبقى متربصاً واقفاً بالمرصاد ، كامن الثورة كالجمر في الرماد .

كان الوعي الاجتماعي والثقافي يزيد في طموح الجيل ، ويدفعه الى التطلع والترقب وبلوغ المستقر ، ومـا كاد ينفلت من معهد محدود ومنهج محتوم حتى اندفع الى المجتمع وخاض غمار الدنيا ، فرأى الفرق بعيداً بين ما تلقاه من كتبه ووعاه من معلميه واهليه ، وبين الذي وجده في زحمة الحياة ، فهو لم يتعلم فنها ، ولا تقلب في تجاريبها ، فأدركه القلق عـلى مصيره ، وصدمه الواقع بما اصطلح عليه المجتمع من مصانعة وتمويه ، وغمط للمواهب والكفايات .

لقد علمته المدرسة وزينت له المثل العليا ليسمو بسموها ويسعى اليها ، لكن مطالب المعيشة كانت تشد به الى المادة ، فيرى عبيدها من جبلة واحدة ، بأيديهم ميزان واحد ، وعلى وجوههم سؤال واحد ، فألم به تململ وتمرد ، واوضح شرح لهذا القلق الذي يعانيه الجيل المثقف المتحرر ان طالب الحقوق مثلًا ينسج في باله وخياله ، وهو على مقاعد الدرس ، قصوراً اندلسية يبنيها في عالم المحاماة والقضاء ، فيتخيل نفسه في جلباب الدفاع أو على منصة القضاء ، ترمقه العيون بالاعجاب ، والناس ببابه وقوف يزدحمون ، حتى اذا نال هذا الطالب وامثاله شهادة الدراسة وأقبل على العالم الذي تمثله وجد حقيقته على غير ما توهم ، فاذا كان من ذوي المواهب والطموح دبت فيه تلك القوة الخفية التي اسميها القلق ، فملأته بالسعي والطلب . وحين تطلع الفرد الطامح من هـذا الجيل ، من افقه المحدود الى آفاق بعيدة ، احس ان القلق يجثم على الامم ، فـان تكالب الاقوياء كان من افجع الظواهر التي ابتلي بها عصرنا ، فقيـاد الدول الكبرى بأيدي عتاة جبابرة ، طغى حقدهم وجشعهم منذ الحرب الاولى ، فاستنفروا اقوامهم حتى التهبوا واستكلبوا ، وكانت حربهم الثانية اشد من الاولى فتكاً وتدميراً ، فأحس سكان هذا الكوكب انهم منساقون الى جحيم موعود ، وقـد باتوا يرتقبون نهاية هذه الحرب لينعموا بالامن والسلام ، غير ان الامل الانساني العام اصيب بأروع صدمة عرفتها البشرية منذ خلقت ، ذلـك اختراع القنبلة الذرية التي انشده منها الناس جميعاً فاشتد قلقهم على المصاير والمقادير ، فويح هذا الجيل الذي نشأ بين حربين ورأى تقلب الحكام والاحكام ، وتبدل الثقافة والحضارة ! ومـا شهد قوم حرباً واحدة الا شابت نواصيهم في الشباب وتحدبت ظهورهم قبل الاوان ، فكيف بهذا الجيل الذي فتح الاعين على زمن تلاحقت فيه الحروب ، وتوالت الكوارث والخطوب ؟

ان « مارس » اله الحرب وجبار الاساطير ما كان يترع عنه

السلاح حتى عاد يشحذ هذا السلاح، واذا نهر الدم يطلب المزيد، وفزع هذا الجيل الى السلام والوئام ، فلم يجد حمامة ترف بالزيتون وانما سمع هدير الاحقاد ، ورأى الابتسامة على الفم الخادع والغدر وراء الجفون ، وما لبث هذا الرياء ان تكشف عن ظلم الاقوياء ، والجيل الحاضر يعاني القلق على مصير الانسان والاوطان ، حتى اذا هبت اعاصير العدوان على فلسطين ، وكشرت الصهيونية عن حقدها وكيدها ، وتقاوى جبناء الارض وتطاولوا ، هب العرب هبتهم الكبرى وجمعوا شملهم لدفع الغدر والعدوان، وعم القلق هذا الجيل كباره وصغاره ، رجاله ونساءه ، ولم يكن قلق المرأة العربية دون قلق الرجل ، فقد شهدت اعظم انقلاب في حياتها وثقافتها ، وربما زاد قلقها على قلق الرجل ، فان كفاحها في سبيل حريتها وكرامتها، في قومها وبلادها، كان لها حرباً داخلية حملت فيها عبأين : واحداً احست به وحدها ، والآخر شاركت فيه الرجل ، فلقد التمست حقوقاً انسانية وقومية ، وحاولت الظهور في ظل متزمت متشدد او متهكم مستهزىء ، فكان نصيبها من القلق اشد واوفى.

ترى ، لئن جاء المؤرخون بعد زماننا ليؤرخوا حياة جيلنا ، فماذا يكون حكمهم ؟ هل يستطيع احدهم ان يكذب على التاريخ كما فعل الاولون ، فيقول : لقد عاش هذا الجيل حياة هادئة ناعمة، كما نقرأ اليوم ما سجله التاريخ عن عهود كانت تغلي بالفتن والمحن فقال المؤرخون عنها، عاش اهلوها هادئين مستقرين، وكانت آمنة مطمئنة.

الا ان اصدق طابع لهذا الجيل ميزه من سواه ودل عليه هو القلق العنيف الذي تمرس به وأغراه بالصعاب ، فما كان ضالاً او وبيلاً ، بل كان حافزاً الى الكرامة والطموح ، متغلغلاً في الروح ، كأنه صورة من صور الضمير الحي اليقظ ، يدور ابداً على نفسه فلا يهدأ ولا يغفل ، ويعمل دواماً كأنه مرجل او دولاب معمل ، على ان بعض الكلم ينبو ويتعاظم ، فلا يجد الكاتب عنه مندوحة لانه يؤدي المعنى الذي يريد من اقرب سبيل، وكذلك فان كلمة القلق على ما فيها من قلق هي وحدها في لغتنا العربية التي تلم بهذا الشعور الذي يتعاور الجيل الحاضر ، وتتسم به حياته وثقافته ، وقد كان علماء البلاغة يلتمسون لهذه الالفاظ معاذير ، لكنهم لم يجدوا عذراً لابي الطيب حين استعمل القافات في بيته المشهور الذي قلقل به قلاقل العيس ، فاذا عبرت كلمة القلق عن المعنى الذي اريد ، فقد بلغت المقصود ، وكان لي في ذلك خير عاذر على لفظ تنبو قافاته وتسمو معانيه.

دمشق وداد سكاكيني

خريف

✡

سكونٌ

على الأرضِ ، يحضنها ، كالحُلُمْ

وفي النفس ، همسٌ ، وجرسٌ ، حزين

كأنَّ الدماء ، بقايا نغمْ

***

ذهولْ

وظلٌّ ، سخيٌّ ، يلفُّ الأفق

وفي الروض ، إيماءة للطلول

ومُتَّكأٌ ، لانهيار الشفق

***

رفيفْ

شرودٌ ، هفا ، ناعمٌ كالوسن

كأنَّ السماء ، وراء الخريف

تخُطُّ الحدادَ ، وتحيا الشجن

***

مساء

على الشمسِ ، في ظُهرها الشاحبِ

وفي الهدبِ ، تهويمةٌ ، وانطفاء

وفي الكأسِ ، تمتمةُ الذاهبِ

حمص وصفي قرنفلي

جولة في الاطلال والشروق

الشاعر حسن كامل الصيرفي

بقلم مصطفى عبد اللطيف السحرتي

بعد زيادة الاستاذ خليل بك مطران للشعر الشرقي الحديث ، وما ادخله عليه من نهج جديد ، وتجارب منوعة ، ومعاني مبتكرة ، واخيلة طريفة . قامت في مصر ، مدرسة أدبية ، تشق للشعر الفني جادة جديدة ، متأثرة مطران تأثراً توجيهياً ، وكانت تضم قلة مصطفاة من شباب الشعراء وكهولهم ، وعلى رأسهم الدكتور ابو شادي وناجي وغيرهما ، وقد اعتمدت هذه المدرسة القوة الشعرية في ذاتها ، محتفظة باستقلالها وشخصيتها الادبية ، ثائرة على القوالب الشعرية القديمة ، والمنظومات التقليدية المعاصرة ، فاستطاعت بجهادها وجهودها ، ان تتحف البيئة الادبية بآثار قيمة ، حوت الواناً من الشعر طليقة ، وصوراً مضيئة ، ومعاني جديدة ، وانغاماً عذبة ، لم يك للناظمين الحضريين عهد بها .

ومن نوابغ هذه القلة ، الشاعر حسن كامل الصيرفي ، شاعر رومانتيكي النزعة ، في اغلب شعره ، مجنح الخيال ، شفاف الانغام ، جمعت شخصيته بين كنزين ، طبيعة فنية ، ونفسية طيبة ، تلمح مظاهرها في لمحات وجهه المعروف الحساس ، وعينيه اللامعتين الذكيتين .

وهيأت له طبيعة بلده — دمياط — الهامات منوعة ، انسابت اليه من البحر الجياش ، والنهر الهادىء المقدس ، حيث يلتقيان هناك قريباً من بلده ، وفجر الالم في نفسه ينابيع الشاعرية ، ونقلتها اعصابه المتجاوبة المرهفة ، فأثمرت شعراً جديداً ، فاتن النغم ، لا عهد للبيئة الادبية المصرية به .

وكان ديوانه « الالحان الضائعة » أول ديوان مطبوع له ، وهو يعد فتحاً جديداً في الحقل الادبي ، وتتمثل فيه روحه الثائرة على الحياة ، وعلى الرواسم الشعرية المألوفة ، والاهداف التقليدية ، اذ قد وعى تجارب فنية خالصة وازدهر بخيالات مجنحة ، ونغمات اثيرية املأت قلوب الخاصة ، ورنت بعض اصدائها في القلوب الصافية المتصوفة من ابناء البلاد العربية ، وهذه النغمات وان تضوع عبقها في قلة من الناس ، فأنها لم تلق اي تقدير من غالبية العاديين من سكان هذا الوجود ، وهم الذين عناهم الشاعر بقوله في احدى قصائده بديوان الالحان :

بنيتُ لهم من جنان الخيال — فراديس ترقص فيها الفنونْ
فراحوا بجنتهم يهزأون — ومالوا على سورها يهدمون
وأنشدتهم من أغاني السماء — أناشيد تعزف للخالدين
فضاع الصدى في فضاء الحياة — وذاب النشيد وهم يصخبون
وحدثتهم عن جنان الخلود — فكانوا بقصتها ساخرين !

ومثل هذه الالحان المتمردة كثيرة في ديوان الالحان ، واكثر منها ألحان الالم ، وهي تفسير نفسه القلقة المتجهمة في بداية حياته ، وستظل هذه الالحان نبعاً ثراً لقلوب الرومانتيكيين ، وللارواح التواقة للانس الروحي المفقود في دنيا الناس ، ومن نماذج هذه الالحان ما جاء في قصيدته « ربيع كالخريف » التي يقول فيها :

هو الربيع . . ولكن أين بهجته — وأين ما كنت ألقى في مغانيه
هو الربيع . . ولكن لا أحس به — ولست أشعر شيئاً من معانيه
هو الربيع . . ولكن عند مبتهج — هو الربيع . . ولكن عند اهليه
لكنني في خريفي بتُ منتظراً — سقوط أوراق عمري في تلاشيه !

ومع وفرة هذه الالحان المشجية ، فلم يخل الديوان من خواطر تأثرية واقعية خفيفة مثل قصائده « المنديل » و « موت البلبل » و « عقب السيجارة » وقد جمع في هذه الاخيرة خواطر وجدانية منوّعة ، وقد استهلها بقوله :

في الارض ملقاةٌ مذهبةً — هذي البقية من سجارتها

منبوذة كانت مغربة — من ثغرها تغنى لسلوتها
كانت تؤانسها فتخلق من — موج الدخان عوالمًا شتى
كانت تؤانسها فتبعث من — قبر الحياة خوادثًا موتى
كانت تشارك قلبها الوجدا — وتظل تكتم شجوها عنها
أنفاسها معدودة عدًّا — وحياتها مسلوبة منها
وتطيل في الانفاس ما شاءت — فتظل صابرة على البلوى
حتى تذوب كأنما كانت — حلمًا ولم يخلف سوى الذكرى

ولم يقتصر الصيرفي على النواحي التي ألمعنا اليها ، ولكن له لفتات غزلية متصوفة ، ونفثات في شعر الطبيعة ممتزجة بالخواطر الوجدانية آنًا وبالفلسفة الخفيفة آنًا آخر ، فضلًا عن اتجاهات رمزية قليلة ، ولمسات انسانية مثالية نادرة ، نمثل لها بمقطوعة « التضحية » وهي ختام ديوان الالحان ، وقد جرت كالآتي ، في اسلوب مباشر جميل :

هنا في هيكل الحب — أحقر مبدأ الفرد
وأحرق عنده قلبي — بخوراً طيب الند
ولست بنادم يوماً — على قرباني الضائع
أجل الناس من يظما — ليرضى الظامىء الجائع

— ٢ —

هذه اللمسات العابرة تكشف الى حد كبير عن شعر مستقل نابغ ، وتنم على شاعر متحرر ابى ان يرسف ادبه في الاغلال ، وتتنفس انغاماً فريدة ، لذة ، انغام الاسى الحنون التي تعيش في الوجدان وتدوم ، وكأي من لذة في الانغام الحزينة اعذب من اللذة نفسها ، كما يقول كليرانس دارو Clarence Darrow في كتابه « الواقعية في الادب والفن » !

واذا كان ديوان الالحان قد أطرفنا بمثل هذه الانغام ، واتحفنا بتجارب شعرية خالصة ، جلها خواطر تأثرية وجدانية حزينة ، فان « ديوان الشروق » يسجل نقلة شعرية مغايرة ، بانتقال الشاعر نقلة نفسية مشرقة ، انه ديوان غمرت اضواؤه الظلال ، واطل في ثناياه وجه المرأة الجاذب ، ونبض فيه قلبها العاطف ، فوجه روح الشاعر وجهة جديدة ، واضفى على شعره اشراقاً ، واضاف الى تجاريبه تجاريب ، ونوع انفعالاته ، وبدل قليلًا من موسيقاه ، وقاده من عالم الضباب والسحاب الى عالم الحياة والاضواء .

واثر هذا الوجه الجاذب ملموس في قصيدتيه « النظرة الاولى » والنور الجديد :

في النظرة الاولى رأيت الحياه — تفتح لي باباً الى عالم
تصدق عيني اليوم فيما تراه — أم لا ترى الا رؤى حالم
في النظرة الاولى جمعت البعيد — من عالم الحب وألوانه
في النظرة الاولى سمعت النشيد — فرحت مغموراً بألحانه !
في النظرة الاولى رأيت الشباب — يحطم الاغلال عن ساقه
ويجهل الماضي وينسى العذاب — فيخفق الكون لخفاقه
قد كحل النور جفوني فلم — يدع لطيف النوم فيها أمل
سينكر القلب معاني الالم — ويفهم الكون بفكر الثمل

فهذا نزوع وجداني مشرق جديد وتبدل نفساني عجيب ، جعل الشاعر ، من النظرة الاولى ، يكاد ينسى العذاب ، وينكر الالم ، ويودع الماضي ، ويفهم الكون فهماً جديداً ، ويحس في جمال هذه الحبيبة بدفقات النور تضيء جوانحه ، ويرى مرأى الطبيعة وبناتها بمنظار وردي ، فيقول في قصيدته « النور الجديد » معبراً عن أنس نفسه واشراقها :

وصلت ما مر من عمري بآتيه — فرحت أكحل عيني من مرائيه
بحلى من النور لم ابلغ مطالعه — أنى اتجهت ولم ادرك تناهيه
الصبح يبلج تياهاً بصادحه — في مسمعي جديد من أغانيه
والفجر قبل ارتحال الفجر لحلي — عما يضمن صبحي في معانيه
والطير تهتف والازهار رانية — كأنما تتحرى من تناجيه !

ويبدو لنا ان فرحته الجديدة كان يشوبها كثير من التفكر ودلالة هذا ظاهرة في القصيدتين سالفتي الذكر ، حيث نجد فيها توزعاً موسيقياً ، وضوءاً قليلًا ، وحركة قليلة السرعة ، والعهد بالشعر المرح ، ان يكون عالي الموسيقى ، قصيراً في مسافاته الصوتية ، مليئاً بالنبض .

وحالما انقشع ما كان يهوم حوله من تفكير في بداية حبه ، انبرى الشاعر يصف اثر الحبيبة فيه حسياً ومعنوياً ، فأخذ يصف اثر عينيها وشفتيها في مشاعره في قصيدتيه « عيناك » و « شفتاك » ، واثرها المعنوي في مثل قصيدتيه « الرضا » و « تنهداتي » وفي هذه القصائد الاربع ، نجد تفاوتاً في قوة تجاريبه ، وفي حالته النفسية ، وفي موسيقاه ، ففي قصيدتي — عيناك — و — شفتاك — تعلو موسيقاه قليلًا ، ويخف توزعه النفسي ، وتتواصل وحدته الاسلوبية ، وتتجرد معانيه ، وفي قصيدته « الرضا » ، تعلو موسيقاه قليلًا ، وتهدأ نفسه ، وتضيء صوره ، وتقل فكراته ، وفي قصيدة « تنهداتي » وتتوحد نفسه ، وتتوحد موسيقاه ، وتعلو درجات ، وتتنوع انفعالاته ، فلا يكتفي بالتعبير عن عاطفة الحب وحدها ، والتلاعب بالالفاظ والصور حولها ، ولكنه يضيف في هذا القصيد انفعالات اخرى ، تلابس عاطفة الحب احياناً ، واعتقادي ان هذا القصيد خير ما في الديوان ، وفي الفقرتين الاولين منه يقول :

قالت : علام تنهداتك في سكونك يا حبيبي
هل أنت في فردوس حبك حامل عبء الغريب
تمضي كما يمضي شعاع الشمس في مهوى الغروب

أو لم تجد في ظلي الوافي هنـاءات القلوب
فظللت ترفر زفرة المحزون والعاني الكئيب
لا تحصي زفراتي الحرّى شجوناً لم تُولّ
فهي التحرق في هواك ، وان حييت بخير ظل
وهي التأمل في هواك وحيرتي ما بين جهلي
وهي التجرد في عناقك والتنعم والتملي
وهي اختلاج الوحي في نفسي بآيات التجلي

ـ ٣ ـ

والملحوظ في ديوان الشروق ، جنوح الشاعر غالباً الى التجريد في المعاني ، كما هو الحال في ديوان الالحان ، وميله الى الابهام في احيان ، كما نلحظ ذلك في قصيدتـه البديعة : « المعنى المبهم » وفي مطولته المهموسة « وحدة العمر » ، كثير من التأمـلات ، والمعاني الغامضة ، ومن اعذب ما جاء فيها :

ستختلف الحياة امام عيني
تمر طيوفهـا وتغيب عني
وتفنى في محيط من تمني
وأحلام تلوح بكل لون

ثم يختتمها بقوله :

تعال فقد بلغت حدود نفسي
واطمع ان اخفق طيف حدسي
فهل لك ان تذيب ثلوج يأسي
وتمزج حاضري بغدي وامسي

وهذا القصيد ، قد يمتعنا بأصداء شعورية بديعة ، الا انه يضع الذهن في حيرة وتلدد ، ويماثله في هذا المنحى قصيد « الحرمان » ذو المعاني المطلقة المجردة ، والخواطر المبهمة ؛ التي يهيم بها الشعراء الشرقيون ، وبعض شعراء الغرب الرمزيين والمحدثين .

ويضاف الى ما تقدم ، ان ديوان الشروق امتاز في بعض قصائده بأنغام ارتكازية ، لا عهد لديوان الالحان بها ، وآية ذلك قصيدته « القبلة » فانغامها تتراوح بين العلو ، والهبوط ، وهذا النوع من الموسيقى نادر في الشعر العربي ، المنخفض القرار في الغالب ، وقد جاء في قدتها الاولى قوله :

خمر شباب رطيب ، معصورة من قلوب
على الشفاه تذوب
في القبلتين وآه
من طعمها اسكريني

وفي قصيدته «نشيد الثورة» تعلو موسيقاه درجات ، وليس في ديوان الالحان ، مثل هذه الموسيقى العالية . ومما جـاء في نشيد الثورة قوله :

تحرك يـا ابيّ الضيم وانهض
فحقك في بلادك بات يرفض
واي جفون مسلوبين تغمض
اذا ما الاسد ديس على حماها

***

بلادك لقمة في عـين جائع
وحقك نهبة في كف طامع
وانت مـع المذلة جد قـانع
فقم وازح عن النيل السفاها

والملحوظ ، ان الصيرفي في موسيقاه العالية لم يبلغ الاوج ، ولعل ذلك راجع الى طبيعته المنطوية ، الميالة الى كبح انفعالاتها ، ولهذا نجده في الحان الالم يجيد كل الاجادة ، لانها ألحـان تتطلب موسيقى هادئة منخفضة القرار ، وهي تحتاج في الاعراب عنها الى جهد كبير ، ولم يخل ديوان « الشروق » من طائفة من القصـائد ذات الانغام الهادئة المشجية مثل قصيدته « الشاعر والسحاب » التي ازجاها الى روح الشاعر النابغة فوزي المعلوف . وقصيدته « الصباح الجديد » التي اهداها لشاعر الخضراء الملهم « ابو القاسم الشابي » وهاتان القصيدتان رائعتان من روائعه ، في تجربتهـما وموسيقاهما ، وخيالها ووحدتها .

ومما جاء في القصيدة الثانية قوله :

ايهـا المتعب الذي حطم الناي واستراح
نم قريراً فقد سرى لحنك العذب في البطاح
فحروك الحلو لم يضع بين اياملك الشجـاح
فهو مـا زال سابحاً هاتفاً خافق الجناح !

في مثل هذه النواحي الحزينة ، تتوحد تجربة هـذا الشاعر ، وتشف موسيقاه ، وتعمق تأملاته ، ولعل مرجع هذا الى ان النفس في الالم تكون اكثر توحداً ، واشد استيحاء لاروع ما فيها ، على حين انها قد تتوزع في قصائد المرح ، او القصائد التفكيرية ، ولم يسلم ديوان « الشروق » وقد طافت به شعاعات الفرحة ، وللمت به خواطر الفكر ، من تخلخل ، وان راقت فكرتها ، وهذا ما نلحظه في مثل قصيدته « خمرة الفن » « والافق » و« وانا » فهـذه القصائد ليست ، على ما نرى ، في مستوى شعره النابغ .

ومن هذه اللمحات الخاطفة تظهر لنا بعض سمات شعر الصيرفي ومناحيه ، وانه لشعر رومانتيكي مجنح في عهد الفتاء ، وشعر غزلي في عهد الشباب ، مازجته بذور قليـلة من بذور الواقعية ، وشعره ترجمة لحياته ونفسه المنطوية غالباً ، والمنبسطة نادراً ، وتعبير لمزاجه المكتئب كثيراً ، المشرق قليلاً ، فهو شاعر صادق ، لا اثر للتصنع فيه ، وهو من ابناء « أبولو » العاكفين على محرابه ، العاملين

صيف وشتاء

نحو الغاية . . في دروب الحياة البعيدة . تلهث قوافل الاقزام الجبارة ، وتجهد الايام في مطاف الزمان ، من تلك اللهثات وذلك الجهد لهب لا يخمد ابد الابيد .

يتحدر العرق من جباهنا الغريرة ، زيتاً لعروقنا التي دب فيها جفاف الامل

اي الم في امل ! ! تلك قصة الحياة منذ اختلجت الحركة الاولى ، وعلى هذه الحروف الزرقاء يقوم بناء الوجود ، وكلما ازدهى الشوك على هوامش المعابر بدماء المجهدين ، انداح صوت هادىء جليل ، فيه حنان الامومة ، ورحمة الاخوة ، يغني .

اي نشيد سحري خدر بجمرة الابد ؟ !

فاذا بالقافلة ترقل ، ساحبة على الجلامد والاخاديد دموعها وجراحها ، مأخوذة باللون الزاهي المنسكب من الاعماق ! !

انها خدعة . . أهكذا تكون الحياة بأنوثتها المواربة ؟ يا لها قطرتان تسيّران البشرية في المعبر الطويل الشائك !! غناء ودموع .

انا ههنا يا زمان ، هات من احداثك وملماتك جبلاً فوق جبل ، لمّ من سواد الليالي المدلهمات ، وحفير النكبات الساحقات ووحشة الكهوف والصحارى ، وانات اليتامى والثكالى ، ردماً فوق ردم ، تمر به النجوم في هلع وانكماش . له صفرة الموت ، وهول الدمار ، ولون الجمود ، لاسكب فوقه قطرة واحدة من دمعي انا الانسان ابن الارض ، فيذوب امام عيني السحرية كجبة الجليد في جبهة الشعاع الدافىء ، ثم اقف على اشلائه الحطيمة لابتسم .

لان البسمة والدمعة في متلازمتان .

هكذا علمتني الحياة يا زمان ان ابتسم بعد البكاء . ! !

فماذا ترى ؟ مكان ذلك الردم الذي كاد يخنق السماء بكثافته وعرامته . وفود وفود ، من مواكب الورود والرياحين .

فاستمع الى قصة الوجود العجيبة تسردها الشمس في حضن الشتاء !

أسرعنا يا زمان ، الي بأقداحك المترعة بعصير الاحداث المرصعة بلهاث المجهول العجيب ولنشرب على هذه الصخرة ، ريثما تلحق بنا طليعة القافلة .

حلو سمر الليل ، المتموج بأطياف الحق ، المرطب بضباب النجوم ، حيث انا وانت يا زمان بين الندامى الذين تبدعهم مخيلة انسان في قلبه إله يبكي ويغني .

حمص   علي محمد شاش

على رفع لوائه ، ومصداق ذلك نجده في اول قصيدة له بديوان الشروق الموسومة بخلود الشعر التي فيها يذبّ عن الشعر ، ويؤكد خلوده ، لانه المعبر عن آلامنا ، وافراحنا ، واشواقنا ، وخفقات قلوبنا ، النامّ عما في الكون من سحر وجمال وهو بهذا القصيد يذكرنا بكلمات فيكتور هيجو عن الشعر وضرورته في قوله :

« بعض الناس يقولون في ايامنا هذه ، ان زمن الشعر قد مضى وانقضى ، وكأني بهم يقولون لا ورود بعد اليوم ، فقد قضى الربيع نحبه ، ولا اوبة ، وان الشمس لن تشرق بعد ، وانك لو جلت في الفضاء ، لن تجد فراشة ! ولا ترى للقمر ضوءاً ، وانك ان تسمع زأرة الاسد ؟ ولا صيحة النسر ، وان القلب البشري قد مات » ؟

وعلى غرار هذه الكلمات الشعرية ، جرت صيحة الشاعر الانجليزي الموهوب – برسي شيلي – في سفره البديع « دفاع عن الشعر » – .

ولقد صار لزاماً على الارواح المرهفة في الشرق ، ان تضم اصواتها الى صيحات هؤلاء الشعراء ، وترفرف بأجنحتها النورانية على دنيانا العاكفة على المادة ، القانعة بشرورها وسيئاتها .

وصار واجباً على الشاعر الذي نتحدث عنه ، وقد جاوز سن الاربعين بأشهر ، ان يخرج دواوينه التي تطبع ، وفيها قصائد فريدة معجبة ، وعليه بعد ذلك ان يودع نزعته الرومانتيكية الغالبة ، ويهبط دنيا الناس ، ناظراً الى المجتمع الذي يعج بالآلام ، والمآسي ، والمظالم ، وليذكر دائماً قوله في قصيدته « وحدتي » .

شقاء الناس يؤلمني   فأسعدهم باشعاري
ونار الناس تحرقني   ولا تحرقهم ناري !

فليقبل اذن شاعرنا على العزف على قيثارة الحياة ، لا ليشجي الناس بأنغامه ، ولا ليسعدهم بأشعاره فقط ، بل ليصور آلامهم وآمالهم ، ويثور على اسوائهم واهوائهم ، ويحمل على ظالميهم كما فعل في مثل قصيدته « السحابة المغترة » التي رمز بها الى احد الحكام المتجعرفين في زمن مضى ، وما ريب ان شعره المطبوع منه وغير المطبوع ، سوف يلقى من ادباء الشرق ، ما هو جدير به من اغراء وتقدير ؟

القاهرة   مصطفى عبد اللطيف السحرتي

طمأنينة السماء

عجّ الاسى في روحها الشاعرة　　في ليلة مقرورة كافرة ! ..
وحيدة .. ضاق بها مخدع　　توغل فيه الوحشة السادرة
كم شهد المكبوت من شجوها　　تثيره خلجاتها الثائرة ..
كم التوت فيه على قلبها　　تبكي اماني قلبها العاثرة
وكم، وكم ، ولا يد برة　　تأسو جراح الزمن الغائرة

***

تنهدت مما عراها وقد　　مالت على شرفتها حانيه
وقلبته بصراً تائهاً　　في قلب تلك الظلمة الغاشيه
لا ومضة تخفق من كوة　　لا نبأة تصعد من ناحيه
سوى هزيز الريح ، تهتاجها　　اصداؤه المفجوعة الباكيه
وقلبها المحروم ما يأتلي　　يدق خلف الاضلع الواهيه !.

***

ورّجت الوحشة اعماقها　　في هيكل الليل الكئيب الضرير
فاصطرعت فيها احاسيسها　　كاللج يطغى في الخضم الكبير .
ووثبت اشباح آلامها　　مجنونة ، تشب شبّ السعير
فجمدت في جفنها دمعة　　تصاعدت من قلبها المستطير
ثم همت ، محرورة ، مُرة ،　　كأنها تضرّع المستجير ..

***

تلفتت وراءها في اسىً　　نحو مهاوي امسها الغابرِ
لعل في اغواره لمحةً　　تلوح من ذكرى سنىً عابر .
لعل في الماضي وأطيافه　　عزاءها عن قسوة الحاضر
فما رأت غير حطام المنى ..　　على صخور القدر الغادر
وبعض اشلاء هوى حالم ..　　مرتطم بالواقع الساخر !

***

وسرحت أمامها طرفها　　عبر غد مكتنف بالضباب ..
فابصرت ، ما ابصرت ؟ مبهماً　　مستبهم الافق مخوف الشعاب
تبعثرت فيه الُصوى . واختفت　　معالم السبل وراء اليباب ..
وهي على الدرب . . ذعورالخطى　　رفيقها الوحدة ! . والاغتراب
والظمأ الكاسر لا يرتوي　　في قلبها الهائم خلف السراب !

***

وكان اقسى ما شجى نفسها　　وابتعث الراعب من هجسها
تدفق الظلمة في يومها　　في غدها المحروم . في امسها
ظلمة عمر ، كل ايامه　　ليل تدجى في مدى حسها
النور ، اين النور ؟ هل قطرة　　تسيل منه في دجى يأسها !
من اين ؟ والاقدار قد جففت　　منابع الاضواء من نفسها ..

***

وفي شرود مبهم ، غامض ،　　تعلقت مقلتها بالسماء !
فانشق صدر الليل عن كوكب ،　　مشعشع الوهج ، دفوق الضياء .
كأن روح الله من فوقه　　تمده بنورها عن سخاء
فانخطفت في ذهلة روحها　　خلف النهايات ، وراء الفضاء
هناك ، حيث النور لا ينتهي ،　　هناك ، حيث النور فوق الفناء

***

هناك غشتها طمأنينة　　علوية ، ما لمداها حدودْ !
وصاح من اعماقها هاتف　　ينتظم الارض صداه البعيد :
يا ارض ، اهواؤك مهما طغت ،　　واقعدت خطوي بثقل القيود .
يا ارض ، احزانك مهما قست ،　　وطبقت حولي مجالي الوجود .
هيهات ان تلمس روحاً سرى　　فيها من الله ضياء الخلود !

نابلس — فلسطين　　　　فدوى عبد الفتاح طوقان

يوم في الخريف

بقلم يوسف الشاروني

☆

كان يوماً تشيع فيه برودة خفيفة مثلجة، وشعاع الشمس ينشر الدفء كلما عبر غيمة قصيرة دكناء. وكانت مدينة « المعادي » الساحرة قد فتها رائحة الخريف الرطبة، وبدت بأشجارها ومنازلها وسحبها وسمائها — من المنزل الذي كنا به — كأنها لوحة قد انتهى الرسام لتوه من توزيع ألوانها الندية الواضحة. وكانت تلال المقطم تحتضن المنظر جميعه من بعيد، وتكون له اطاراً سحرياً حيث كانت الطبيعة تكافح من اجل ان تلتقي نهايات الافق بنهايات الارض.

وكان المنزل الذي جمعنا أنيقاً وبسيطاً، سواء فيما يحوي من اثاث او في علاقتك بأصحابه ومن اجتمع فيه من الاصدقاء. ولم يكن يحوي سوى غرفتين، احداهما تستعمل كغرفة مكتب عند انفراد اصحابه بأنفسهم، وكغرفة استقبال عند وجود الآخرين. وكانت هذه الغرفة قد امتلأت بنحو عشرين شخصاً ما بين فتى وفتاة يكاد يكونون جميعاً بين الحادية والعشرين والثامنة والعشرين، ما بين اقرباء واصدقاء.. وهكذا اجتمع الشمل.

وبمجرد صعودك درجات السلم وتخطيك الحاجز الخشبي الذي اقيم على الباب خوفاً على الصغيرة من الوقوع، فانك تحس الثقة والطمأنينة. فأنت هنا لا تتعامل مع غرباء، لكنك لا تتعامل كذلك مع اشخاص ظلوا يرعونك منذ الطفولة حتى اصبح لهم عليك فضل، وظلوا يراقبون حسناتك وسيئاتك حتى ما عدت تخشى ان تظهرها امامهم، بل انت هنا في جو عائلي دقيق، قد يعرف نقائصك ومآسيك، لكنه لا يطالبك الا بان تقدم خير ما لديك.

الفتاة:

ثمة فتاة — ربما في الثانية والعشرين من عمرها — قد جلست على احد المقاعد المبطنة. وكانت مثار اهتمام الآخرين لانها غريبة عن كثرتهم، ثم هي تثير انتباههم بثوبها الانيق، نصفه الاعلى ذو لون أحمر به دوائر صغيرة بيضاء قد كشف عن ذراعين سمراوين حتى الكتفين المستديرتين الناعمتين، وكشف بلونه الاحمر عن الصدر الخمري، اما نصفه الاسفل فكان اسود كشعرها الكثيف المتناثر حتى الكتفين. وكانت تتميز عنهم بشيء ثالث، ذلك انها الفتاة الوحيدة التي وضعت المساحيق على وجهها في صراحة ووضوح لا سيما ذلك الاحمر الوردي الذي صبغت به شفتيها فبدتا دقيقتين والفم صغيراً كأنه فم طفل. ثم هي تتميز عنهم بشيء رابع كان هو اهم التميزات جميعاً، ذلك ان لها صوتاً ذهبياً كما شاءت ان تعبر عنه الجماعة.

وقد دخلت صاحبة المنزل تحيي الجماعة بابتسامتها السخية، ثم حملت لفائف من الورق قيل انها طعام العشاء الذي حملته الجماعة معها الى هذا المنزل. فهنا لا يقدم المضيف الطعام لضيوفه بل ان العكس هو التقليد، فالضيوف يحملون الطعام ويدعون اصحاب المنزل لتناوله معهم، وهذه درجة من درجات اللون الذي يصبغ العلاقة بين هؤلاء الافراد جميعهم. فأنت اذن لا تكاد تعرف من هم الضيوف ومن هم المضيفون.

وما ان حملت صاحبة المنزل هذه اللفائف وغابت -- الى المطبخ غالباً -- حتى تطلعت العيون الى « صفية » تطلب منها الغناء . وكان صاحب اعلى صوت هو شاب عريض الصدر فارع القوام يضع (عوينات) سمراء . فاحمر وجهها قليلاً واظهرت بعض الدهشة والتجاهل . لكن الانسان الذي يعرف ان له صوتاً جميلاً وانه يجيد الغناء ليتمنى خجلاً لو ان احداً قد اكتشف فيه فجأة هذه الموهبة ليذيعها على الآخرين فيتهافتون طالبين ان يسمعوه . لهذا كان مجرد وجود « صفية » في الجماعة يغريها بالغناء ويعد نفسها وروحها لذلك . وكان قليلون قد استمتعوا بسماع صوتها من قبل ، اما الآخرون فكان يخالط رغبتهم في الانصات رغبة اخرى في الاكتشاف : اكتشاف حيوية هذا الصوت ومدى صدق ما سمعوه عنه من قبل والى اي حد يستطيع ان ينشيهم او يثير اشجانهم . اتراه منخفضاً ام مرتفعاً ؟ صافياً ام اجش بما يملأه بالحنان والرقة ؟ وهكذا كانوا يبلورون في روحها الرغبة والموهبة .

واخيراً بدأت تغني .. كانت تضع ساقاً على ساق ، وبدا وجهها كأنما اكتسب الجد ، وربما هي الصورة التي تتخذها عضلات وجهها كي تغني . لكنها كانت تحس بلا شك انها تقوم بعمل جدي وكان صوتها ينخفض في حنان حالم تارة ويرتفع في شكوى صارخة مرة اخرى وهي تغني : يقصروك يا ليل ، ويطولوك يا ليل . وكانت اصوات الاستحسان ترتفع بعد كل « وصلة » وكان اعلى الاصوات جميعاً هو صوت ذلك الشاب العريض ذي العوينات السمراء ، فكان يحرك راسه الى اليمين والى اليسار نشوان بالصوت المتموج مع تعبير الالفاظ وانفعالات المعاني ، حتى لأضحكها اكثر من مرة وهي تغني ، فكان يتبدل وجهها فجأة من الجد الى الضحك العميق المرتفع . كأنما تحرر نفسها من كل القيود التي فرضتها على نفسها حين بدأت تغني .

وكانت هي تجيل عينيها في السامعين تارة وتطلقها في الفراغ تارة اخرى ، وقد انفعلت مع الاغنية . وبدأ التأثر واضحاً على وجهها وجسدها كأنما تستحضر تجربة لها من اعماق كيانها ، وبهذا تعين الآخرين فتطفو تجاربهم القريبة والبعيدة متجسدة في النغم المنفعل العربيد . وكانت عيونهم تلتقي بعينيها . هل كانت هذه العيون تحاول ان تقرأ شيئاً في معنى هذا التلاقي ؟ او كانت هذه النظرات التي تلقيها العيون ليست الا ستاراً يخفي وراءه انبثاق ذكريات وحوادث وعوالم ؟ لقد بدا على البعض انه ترك عينيه الشاخصتين توهمان الجالسين انه لا يزال حاضراً هنا ، بينما هو قد رحل الى حيث لا يعرف آخر ، والغناء يصل الى سديمه العاطفي في انخفاضة صوت حالمة مرة وانين صارخ مرة اخرى فيدفعه دفعة ابعد في مجاهيله المترامية .

وفجأة دخلت الصغيرة على مهل تتلفت هي ايضاً باحثة عن مصدر الصوت . كان وجهها أبيض ووجنتاها ممتلئتين حمراوين وعيناها رماديتين ، وكانت تبسم للجميع بلا استثناء وان حاول واحد أو اثنان أن يستأثرا بانتباهها . وكان الغناء قد انتهى وأعقبته موجة من التصفيق واصوات الاستحسان لا سيما من الشاب العريض ذي العوينات السمراء . فحاول كل ان يداعب الصغيرة ، حين رآها الجميع تغادر الغرفة بلا اكتراث .

ومضت لحظة ، لحظة واحدة قصيرة صامتة ، كان فيها صدى الغناء لا يزال يسري في الدماء كأنما تتشربه بلذة على مهل ، والجميع يحسون ان موسيقى العالم كلها إنْ هي الا محاولات لن تبلغ كمالها من اجل الوصول الى الغناء الانساني الذي لا يمكن ان تنشده الا اوتار انسانية .

اللعب :

ثم اقترح اقتراح صادف قبولاً من الجميع ، ذلك هو النزول الى حديقة الدار والاشتراك في بعض الالعاب . فبدأ الجميع يغادرون الغرفة متخطين الحاجز الخشبي . بينما اسرع اثنان باعداد الارجوحة بين شجرتين من اشجار الحديقة . ولم تكن الارجوحة سوى حبل من حبال الليف السميكة ، يعقد طرفاه في الشجرتين ثم يوضع (جوال) فارغ في انحناءة الحبل التي تبعد عن الارض متراً او بعض متر ليقوم بدوره المقعد . ثم جلست احدى الفتيات وتشبثت بالارجوحة واخذ شاب او اثنان يدفعان الارجوحة . ويبدو انها لم تكن تقدر شيئاً من المصاعب التي تعترض راكب الارجوحة . فرغبتها كانت متجهة فقط الى اللذة التي يمكن ان تحصل عليها من وجودها في الفراغ . وما ان اخذت حركة الارجوحة تزداد حتى بدأت الفتاة تستغيث وتطلب ايقافها ، محتجة بأن المقعد غير مريح ويكاد يميل الى اليسار اكثر مما يميل الى اليمين . وكأنما كانت هناك رغبة في مشاهدة ضعف الغير واضطرابه تدفع احد الشابين الى عدم الاكتراث لهذه الصرخات ، فيزيد من نشاطه في دفع الارجوحة دفعاً عنيفاً الى الامام والى الخلف . لكن الصرخات النسائية اخذت تزداد فاكتفى بأن كفّ عن دفع الارجوحة بينما تولى زميله ايقافها .

وادرك الجميع ان ارتقاء الارجوحة ليس لذة تشذ عن باقي

الالذات، فلا بد من الجهد الذي تبذله للاحتفاظ بتوازنك كي تحصل على لذة التأرجح. وهكذا بدأ الآخرون يرتقون الارجوحة وكل منهم يحصل على هذه اللذة بمقدار ما لديه من استعداد للاحتفاظ باتزانه وبالسيطرة على اعصابه. على ان اعلان الهزيمة امام هذه اللذة لم يكن مخجلاً الى حد كبير، فقد اتاح جو الصداقة والالفة بين الجميع ان يشارك المهزوم الآخرين في الضحك عليه. والواقع انه قد اتيح للجميع فرصة طيبة لمشاهدة جوانب اخرى للشخصيات التي لم تألف ان ترى بعضها بعضاً الا في ثياب الجد والعمل، حتى لقد كانت الفكرة التي كونها كل عن الآخر خالية من وجود هذا الجانب الرياضي المنطلق المرح. وما كان يمكنه ان يتخيل انه يستطيع ان يرى هؤلاء الاشخاص وقد رفعوا عنهم ملابسهم الثقيلة، حتى لقد نزع البعض حذائيه، ثم انطلقوا يعدون خلف بعضهم بعضاً. وربما كان من العجيب ان يكتشف الانسان في صديقه الذي يوحي نشاطه الذهني والعاطفي — لسبب غير منطقي — ببلادة في جسده، انه يستطيع ان يعدو خيراً ممن كان يتوهمهم أنشط حركة واسرع عدواً. ففي مثل هذا الجو تتحقق فجأة امكانيات على نحو جديد ورائع وجميل.

الرقص :

هنى

اذا ما اخذ التعب يدب في هذه الجماعة التي لم تكن قد حركت عضلاتها منذ زمن بعيد حتى لكأنها صدئت، فكروا في العودة الى ارديتهم ومظهرهم الاول. وجلس البعض طلباً للراحة، بينما اندفع آخرون نحو الماء يغتسلون ويحسون هذه اللذة العميقة عندما يسيل الماء البارد على اجسادهم التي تصبب عليها العرق. وسرعان ما يجتمع الشمل في الغرفة الصغيرة مرة اخرى، وهم يعللون النفس بنكتة تقال في هذا الركن او بتعليق صغير على حدث ما يقال في الركن الآخر. لكن الجميع يحسون ان هذا التعلل غير مجد.. حين ينادي مناد بأن « حفصة » تجيد الرقص الايقاعي.

وحفصة فتاة في نحو الثانية والعشرين كذلك، كانت تجلس مع صديقتها هدى في الطابق الاسفل، حين سمعت غناء صفية فأتت تشارك الآخرين في الاستماع الى الصوت الذهبي. وقد لفتت هي الاخرى الجماعة حين دخولها بتشابهها الظاهر مع صفية. فهي ترتدي ثوباً سمائي اللون، يكشف عن ذراعين ناعمتين، وثمة شعر كلما تراخى على عينها اليسرى دفعته برشاقة الى الوراء نحو رأسها وتصبغ شفتيها بلون احمر برتقالي. وكانت تجلس طوال الوقت صامتة تغرز ابرتها في رداء من الصوف لما يبدأ، وهي ترفع عينيها بين حين وآخر تتأمل الآخرين الذين ربما هم ايضاً يتأملونها. ورغم صمتها، فأن مجرد وجود هذا التشابه بينها وبين صفية اوحى بأنه قد لا يكون نتيجة للصدفة الخالصة، مما دفع أحد الشباب ليسألها ما اذا كانت تجيد الغناء. وهنا تطوعت صديقتها للاعتراف بالحقيقة المجهولة الهائلة : انها تجيد الرقص الايقاعي. وتنبهت العيون المسترخية، فهذا لون جديد لم تشهده الجماعة، مما أثار يقظتهم واعاد اليهم نشاطهم واستعدادهم الحسي.

ويبدو ان حفصة كانت انموذجاً آخر للمرأة مختلفاً عن صفية رغم التشابه الظاهري بينها. فحفصة لا تتمتع كما تتمتع صفية، بل بمجرد اعلان موهبتها اصبحت تريد الرقص وترغب في ذلك اشد الرغبة، حتى لقد خيل لبعض الخبثاء انها ما صعدت الى الجماعة لتستمع الى صفية بل لكي يتاح لها فرصة ترقص فيها امام الجماعة وهنا بدت الحاجة الى نغمة راقصة، وسرعان ما روي المذياع وهو يوضع في نافذة تطل على مكان فسيح في العراء. وسرعان ما انتقلت اليه الجماعة، كل يحمل كرسيه ويغادر الغرفة، ونظفت الارض ونزعت حفصة حذائيها، فأصبحت بساقيها العاريتين وذراعيها الناعمتين حتى الكتفين البلوريتين وبشعرها المسترخي على عينها اليسرى وجسدها الناضج المتفتح، خير من يمتع الجماعة برقصة ايقاعية رائعة.

على ان المذياع لم يفلح في اخراج نغمة واحدة راقصة من جميع انحاء الارض. وكان الجميع قد مهدوا أنفسهم للتمتع بهذه المشاهدة الجميلة، فوجدوا صعوبة في ان يغيروا ما مهدوا له انفسهم، لهذا الحوا على المذياع في التقاط نغمة من نغمات « الجاز » او « التانجو » او « الرومبا » لكن اعلنت جميع محطات العالم عصيانها. وبدا الاشفاق على حفصة، فهي التي اعدت نفسها للقيام بالدور الرئيسي وكان عليها ان تبذل مجهوداً جباراً لكي تعدل عما منت نفسها — ومنت الجماعة به — فاقترح العودة الى الارجوحة واللعب حتى يلتقط المذياع نغمة مناسبة. حين اعلن احد المتحمسين ان ثمة نغمة في المذياع يمكن الرقص معها.

وجلس الجميع متأهبين للتمتع بالرقص في ساعة الغسق. ذلك ان الشمس كانت من بعيد قد بدأت تتوهج توهجها الاخير، وكانت قد نثرت على غيوم الخريف الوانها السحرية الحمراء، واشعتها الفضية

المتكالبة بالغيوم . لكن نغمة « الجاز » ما لبثت ان انتهت بمجرد التأهب لكل شيء ، وفجأة سمع صوت الموسيقى من جديد ، فانفرجت الاسارير وارهف الجميع آذانهم . فاذا بالموسيقى من نوع السينفوني . وبدا على حفصة انها لن تتراجع حين اعلنت انها قررت ان ترقص على نغمة السينفونية !

واقبلت في خطى وئيدة وسط الحلقة، ورأينا الجسد الانساني الحي اللدن يتحرك ويتثنى ، والذراعين العاريتين ترتفعان تارة وتنبسطان في الفراغ طوراً آخر ، والشعر الكثيف ينسدل على العين اليسرى ثم يرتفع عنها ، وكأنما اصبحت العيون تقوم بحاسة اللحن ، فهذا جسد حن امامنا ، قد كادت ان تمس ركبتيها الارض ، بينما انثنت الاخرى ، فبدت ساق واحدة عارية ، وقبل ان تملأ عينيك من هذا الوضع الساحر تراها قد انتصبت ومضت تسبح في الهواء ، حتى لكأن عدم اتاحة الفرصة الكافية تستوعب فيها الوضع هو جزء من الوضع نفسه . وهكذا لم تكن حفصة تعطي من الحركات الا اجزاءها ، ومن محاسن جسدها الا بعضها ، مما يثير احساساً بالتوق واحساساً بالحرمان ومجالاً للخيال .

ويبدو ان السينفونية بدأت في حركة « الاندانتي Andante» فصرخت حفصة تريد من النغمة ان تسرع قليلاً والا فان بطء حركتها يهددها بالتعب والرغبة في النوم . وفجأة لاح ان السينفونية قد أطاعتها ، وكأنما كان الجميع نهمين الى رؤية حركات عنيفة جنونية بدلاً من هذا الهدوء الحالم . لكن الحركة ما لبثت ان عادت الى نغمتها الحالمة مرة اخرى ، فلم تجد حفصة الان تعلن انتهاء الرقص .

الليل :

وكأنه الغسق قد بدأ يصبغ الوجود كله بلونه الرمادي الحريني ، وبدأت الاجسام تتداخل في الفراغ فتختلط جميعها في لون الليل المقبل ، بعد ما كان النور يضع حدوداً فاصلة بين كل جسم والفراغ المحيط به . والمنظر الذي بدا رائعاً سحرياً من قبل كأنما هو الآن لوحة قد اخذت تبهت الوانها وتتقارب في لون واحد غامض ، يوشك ان ينتهي بك الى الاحساس بالعدم . فالفروق تزول بين حدود التلال وسفوحها ، والتميزات تبهت بين الاشجار والمنازل والطرق ، كأنما التميز والتفرد قد اجهد هذه الاوضاع جميعها فأخذت تفر الآن من ظلام الليل تنشد الراحة في الاحساس المطلق بالمساواة . غير ان الانسان لا يتحمل الحياة بغير النور ، لهذا فسرعان ما رؤيت الطرق وقد انبثقت فيها مصابيح مرتفعة يبدو شعاعها من خلال اوراق الاشجار ، كما بدت الاضواء الكهربية من خلال النوافذ ، لكن النور لم يستطع ان يمتد الا حيث كان الانسان ، ففي الافق البعيد لم تعد تميز بين السماء والارض ولا بين التلال وسفوحها ، وفي النهار تحس الطمأنينة لانك ترى السماء في جانب والارض في جانب ، وان مجرد التنازع بينهما كفيل بأن يطمئن الانسان الى انهما لن يتحدا عليه ، اما في الليل ، عندما تصبح السماء والارض كتلة واحدة من الفراغ الكبير المتسع فانك تفقد هذه الطمأنينة .

وبدأت الجماعة تدرك ان الاصوات اخذت تحتل مكان المرئيات ، واخذت حواس النظر تأخذ بعض الراحة لتقوم حواس السمع مكانها بمهمة الاتصال بين الذات والعالم الخارجي . وكأنما كان جو الظلمة المقبلة يحمل معه اغراء خبيثاً بالاعتراف . ففي العتمة ، عندما تبهت المرئيات وتزول التميزات أمام النفس الانسانية ينهار الاحساس بأن هناك مقاومة او مراقبة خارجية ، ونحس كأننا نستطيع ان ندلي بما شئنا من اعترافات في الفراغ الاسود المتسع الكبير واثقين انه مهما ازدحم بمثل هذه الاعترافات بان لونه الاسود يساويها بالاجسام الاخرى فلا نخشى افتضاحاً . وهكذا اقترح على كل فرد ان يقوم بدور ايجابي في نشاط الجماعة ومرحها . وبعد ان كان هناك مغنية واحدة وراقصة واحدة ، اصبح الجميع مغنين وراقصين .

على اية حال كانت هناك رغبة من الجميع في التعرف على نواحٍ جديدة من اصدقائهم ، فماذا عساهم سيقولون ؟ على ان اولهم اكتفى بأن يغني اغنية ، حزينة وقصيرة وفي صوت اجش ، كأنما هذه هي الوسيلة الممتازة للاعتراف في الليل امام الآخرين . وتبعه الثاني والثالث والرابع . وأتى دور صاحب المنزل ، فأرهفت الآذان تستمع الى هذا الشخص الذي لم يُسمع مغنياً مرة واحدة في حياته ، ماذا عساه يفعل ؟ لقد بدا للبعض انه لو رفع صوتاً بالغناء فان هذا العمل الذي قد يبدو تافهاً عرضياً انما هو دلالة على وجود تحول خطير في حياته .. على اية حال قد رفض الغناء بدعوى انه لا يعرف اغنية واحدة وانه يجيد السماع لكنه لا يجيد الحفظ واكتفى بان يقول نكتة ضج لها الحاضرون بالضحك . واذن فليس ثمة تحول خطير قد حدث في حياته .

وكان يكفي ان يرفض صاحب المنزل تنفيذ الاقتراح لكي يتعطل بعد ذلك . فرؤي ان تأتي خادمة المنزل « آمنة » لتغني بعض الاغاني الشعبية . وآمنة فتاة ريفية هادئة القوام لها صوت حلو

رفيع ، كانت تقوم على خدمة الجماعة منذ اقبلوا ، وحملت اليهم اخيراً اقداح الشاي التي مضوا يحتسونها في نهم ولذة وبعضهم يدخن لفافته. وقد اغتبطت آمنة لهذا الاقتراح وبدأت تغني بعض الاغاني الشعبية ، ثم بعض الاغاني الريفية وبدا على البعض انهم يتذكرون الريف المصري وما يحوي من جمال وآلام ، وما يربطهم به من ذكريات جميلة ومفزعة. فان اغلب القاهريين لهم اصول او اقرباء في الريف يزورونهم بين حين وآخر ، وهناك يسمعون من الاغاني ما يصبح فيما بعد اطاراً اميناً للريف وذكرياته ، فاذا عادوا الى المدينة وسمعوا اغانيه لحظة ما ، بدت كأنما هي صندوق سحري يتفتح عن عشرات الذكريات وآلاف التفاصيل الدقيقة المنسية الرائعة وانتهت آمنة من اغنية بعد اخرى ولا يزال يطلب منها ان تغني اخرى واخرى . . . وبدا ان الغناء والموسيقى وكل الفنون الصوتية هي الفنون الليلية بحق ، حيث يساعد الظلام الجسد على التفرغ لحاسة السمع ، فيصبح الصوت هو الاداة التعبيرية الرئيسية في الليل .

الطعام :

وكأنما بدأت ثمة معركة خفية تقوم بين الاستمرار في الحلم وبين الواقع . فالليل اخذ يوغل ، وبدا ان العودة ضرورية ، حين اعلن ان طعام العشاء قد اعد . ولم يكن العشاء سوى هذا الطعام الذي حملته الجماعة معها حين مجيئها . لهذا بدأ الجميع يتركون اماكنهم ويدخلون الغرفة المنيرة حيث كان الطعام قد اعد على المائدة في انتظار صاحبة المنزل . وكان منظر الطعام جزءاً جوهرياً من المنظر العام للغرفة ، بل اخذ يحتل بؤرة النظر بينما الاشياء الاخرى تنزوي في ظلال الشعور . وهكذا لم ينتظر احد مجيء صاحبة المنزل التي تأخرت لسبب ما ، بل اصبح من الضروري جداً ان يختفي الطعام من فوق المائدة لانه يثير احساساً بالحرمان ، ويتطلب من الجميع امتحاناً غير ضروري لارادتهم وصبرهم . ومد احدهم يده في تردد يأخذ زيتونة فقط ، بينما مد ثان يده ليأخذ قطعة من الخبز – يتبلغ بها – وهو يضحك كأنما يعتذر للآخرين . وفجأة وضحت رغبة الجميع حين اقبلت اخيراً صاحبة المنزل تقطع الخبز بالسكين ثم تقدم الطعام للجميع وتدعوهم الى ان يشاركوا فيه .

وكان الطعام مكوناً من حساء ومكرونة ومحشي . والواقع ان لذة التذوق من اجمل المتع التي تتاح للانسان ، وكأنما هناك قرابة شديدة بينها وبين اللذة الجنسية . فكلاهما يعتمدان على اللمس المباشر ، بعكس الامر في لذات النظر والسمع والشم . ولذات اللمس هي اقرب اللذات حسية ، واللذات الحسية هي التي يشارك فيها الجسد كله ، فالنشوة الناتجة عن اللذة الحسية تسري في الجسد كله ، ولا يتاح للعقل ان يستأثر بالنصيب الاكبر كما يتاح له ذلك في لذات النظر والسمع . ولقد كانت « المكرونة » اكثر انواع الاطعمة اتقاناً ، وكان يجب مراعاة ذلك حتى يتاح للجميع ان يشاركوا فيها ، مما جعل نصيب كل فرد محدداً بعكس الامر في انواع الطعام الاخرى ، ومما ازاد من لذتها الاحساس بعدم الاكتفاء منها وعدم وصول الرغبة فيها الى نهايتها .

وثمة شعور قد ينتاب البعض وهم يأكلون امام آخرين ، فهم يحسون ان الانسان يتحول الى حيوان ، وتصبح الشراهة هي الرذيلة التي يخاف هنا ظهورها . فالاقلال من النشاط الفكري ساعة الطعام ، والصمت السائد الذي لا ينقطع الا لرفع لون من الالوان واحضار آخر ، ورؤية الملاعق والاشواك تدخل الافواه ممتلئة ثم تخرج فارغة . . كل ذلك قد لا يفكر فيه الانسان لو انه كان وحده او كان مع اهل منزله الذين تعود ان يأكل معهم منذ نعومة اظفاره ، لكن وجودك فجأة امام الآخرين بمثل هذا الوضع يجعلك تحس – ولو بعض اللحظة – بحيوانيتك الكامنة في اعماقك . وربما كان هذا سبباً من اسباب اقتراب لذة التذوق من اللذة الجنسية التي يخجل الاثنان ان يستبيحاها امام الآخرين

وقد انتهت عملية العشاء في نحو الساعة التاسعة والنصف ، وانتهت – كما بدأت – بغسل الايادي . ثم اخذ الجميع يتسللون من الغرفة المضيئة الدافئة الى الليل الخريفي العريض . وثمة خليط غير منتظم يحسونه في اجسادهم ودمائهم ما بين لعب وغناء ورقص وطعام . ومضت الفتيات يغنين في طرق « المعادي » الساحرة يودعن هذا اليوم من الحياة الجميل .

وربما بمجرد تفردهم الى المسالك والطرق المختلفة المؤدية الى منازلهم ومخادعهم بدأت بقايا اليوم الرائع المنتشرة في الروح والجسد تختلط بتوقعات المستقبل . وربما بدأ البعض يعود الى مزاجه السوداوي ويفكر في المرضى والكادحين الذين لا يتاح لهم ان يتمتعوا بمثل ما استمتع هو به في ذلك اليوم ، وربما كان هذا مجرد وضع اطار لتظهر من داخله متعة كاملة واضحة المعالم ، وربما هي الطبيعة البشرية التي تحب ان تشرك الآخرين فيما حصلت عليه من متعة وسعادة .

القاهرة — يوسف الشاروني

المال في الادب

بقلم عيسى ميخائيل سابا

●

في مسير الزمن وتحت بسمات القمر، في فحمة الليل، نفوس نظرت الى الحياة، فاذا هي باسمة فرحة حسان بالرقرق الوضاء يرفلن في جنان الانس، ورجال قد اسبغت عليهم النعم، فراحوا في غبطة العيش يشتارون من الوجود اطايبه، ومن نعيم الدنيا لذائذها، فكأن السعادة في ملك يمينهم، لا يلمحها الا من كان دونهم ثراء وبسطة يد.

والمنعمون في الحياة لا يشعرون بقيمة ما هم فيه ولا يعرفون له قدراً، الا اذا منوا بنقص من الاموال والانفس والرزق، والحياة لا تكون على وتيرة واحدة ولن تكون، وهذا ابو العتاهية ينشدنا:

ألم ترَ أنّ الفقر يرجى له الغنى   وأن الغنى يخشى عليه من الفقرِ

والتبدل سنة، ومن سره زمن ساءته ازمان، وهذا المال، وهو المعبود الثاني، الذي يسعى اليه الكبير في كدحه، والصغير في مدرج بيته، فهو القوة والعزم، والسيد المتحكم، والسلطان المطلق، اليه تطال الاعناق، وتشتاقه الانفس ساعية وراءه، باذلة في سبيله عرق القوبة، فهو، الآمر والناهي.

يرفع ويخفض.

ينقذ من بلوى، ويوقع في بلوى.

يسعد ويشقي.

وهو اما سجين في قرارة الصناديق، واما حر طليق، تقلبه الاصابع، وترقص له الجوارح:

ولولا ائتلاف النطق بين حديثهم   بوجهك يا دينارُ آلوا وأقسموا

والمال، كلمة تشمل كل ما يملك المرء، وقد نحت من كلمتين هما: «ما، لي» اي الذي لي، فالجار والمجرور معلق بصلة ما الموصولية، المقدرة بفعل حصل، وقد اطلق على الدرهم المتداول بين الايدي. وهو سبيل الى الملكية والحصول على ما يرغب فيه الانسان. وحديثه بين كل شفة وعلى اسلات كل لسان، فلا عجب ان نحن رأينا الادب العربي يفسح له مجالاً واسعاً ويتناوله تناول المرأة والخمرة، فالمرأة مبعث الغزل والخمرة وحي الروح، والسلك الجامع بينها هو المال، ومن فقده فانه يفقد كل شيء.

وقد قيل:

فصاحة حسّانٍ وخطُّ ابن مُقلةٍ   وحكمة لقمانٍ وعفّة مريمِ
اذا اجتمعت بالمرء والمرء مفلسٌ   ونودي عليه لا يباع بدرهم

وفي خبر رواه ابن دأب قال:

«خرجت مع بعض الامراء الى الشام، فمر بي رجل كنت اعرفه حسن الحال من اصحاب الاموال الظاهرة في حال رثة، فسلم علي فقلت:

ما الذي غيّر حالك؟

قال: تنقل الزمان، وكر الحدثان، فآثرت الجولان في البلدان، والبعد عن المعارف والخلان، والامير الذي انت في خدمته هو صديقي، وقد اخترت البعد متمثلاً:

ساعمل نصّ العيس حتى يكفّني   غنى المال يوماً او غنى الحدثان
فللموت خير من حياة يرى لها   على المرء ذي العلياء مس هوان
متى يتكلم يلغ حكم كلامه   وان لم يقل قالوا: عديم بيان

وانصت اليه وقد أراد نص العيس اي حث النياق على السير حتى تأتي آخر قوتها، وما عمد الى ذلك، غير مبال بالتعب، الا

لما صار اليه من فاقة وعوز ، بعد رغد العيش ونجبوحته ، وهو انما اراد التهالك في طلب المال حتى اذا ما قال لا يتهم بالعي وعدم البيان .

وهذا عروة بن الورد ، شاعر من شعراء الجاهلية ، وفارس من فرسانها ، ولقب عروة الصعاليك لجمعه صعاليك العرب وقيامه بأمرهم ، اذا اخفقوا في غزواتهم يقول مخاطباً امرأته :

ذريني للغنى اسعى فاني   رأيت الناس، شرّهم الفقير

ومنها :

يباعده القريب وتزدريه   حليلته وينهره الصغير
وتلقى ذا الغنى وله جلال   يكاد فؤاد صاحبه يطير

وكأن الدرهم وماله من جلال حمل الشعراء على التكسب وفيهم زهير وهو القائل :

قد جعل المبتغون الخير في هرم   والسائلون الى ابوابه طرقا

وقوله ايضاً :

اخي ثقة لا تهلك الخمر ماله   ولكنه قد يهلك المال نائله

على ان التهافت على طلب المال لم يكن بالامر الحديث فهو قديم وقديم جداً، فقد وجد يوم عرف الانسان الملكية، وعرف الادخار، ومن ثم تطور الى البذل والعطاء، طلباً للسيادة والزعامة، وقد يكون ذلك البذل سجية في طبع المرء كما يدلنا قول حاتم الطائي :

فقلت دعيني انما تلك عادة   لكل كريم عادة يستعيدها

وقوله يخاطب امرأته :

أيا ابنة عبد الله وابنة مالك   ويا ابنة ذي البردين والفرس الورد
اذا ما صنعت الزاد فالتمسي له   أكيلا فاني لست آكله وحدي

ولم يكن حاتم، في ما يروى عنه، يحرص الا على سلاحه وفرسه، ولا يدخر من ماله سوهما بدليل قوله :

سأذخر من مالي دلاصاً وسابحاً   واسمر خطياً وعضباً مهندا
فذلك يكفيني من المال كله   مصوناً اذا ما كان عندي متلدا

ولقد كان المال محط اجلال صاحبه منذ البدء، ولما يزل. واليك ما انشد محمود الوراق .

ارى كل ذي مال يجل لماله   وان كان لا اصل هناك ولا فصل
فشرّف ذوي الاموال حيث لقيتهم   فقولهم قول وفعلهم فعل

ومن جميل ما يروى عن احيحة بن الجلاح، وكان له في الزوراء ثلاثمئة ناضح، والناضح هو البعير الذي يحمل الماء من نهر او بئر لسقي الزرع قيل انه دخل بستاناً له، فمر بتمرة فلقطها فعوتب في ذلك فقال : تمرة الى تمرة تمرات وجمل الى جمل ذود، يريد بذلك ان القليل اذا ضم الى القليل يصير المجموع كثيراً وأنشد :

اني مقيم على الزوراء اعمرها   ان الكريم على الاخوان ذو المال
فلا يغرنك ذو قربى وذو نسب   فمن ابن عم ومن عم ومن خال

كل النداء اذا ناديت يخذلني   الا النداء اذ ناديت يا مالي

ويفسر لنا هذا المعنى ابن عبد ربه بقوله :

دعني أصن حر وجهي عن رذالته   وان تغربت عن اهلي وعن ولدي
قالوا : نأيت عن الاخوان قلت لهم   ما لي أخ غير ما تحوي عليه يدي

وهذا الدينار العزيز الذي سعت في سبيله كل نفس ناطقة، ولما تزل تسعى وراءه نراه عند الحريري وقد عقد له مقامة بعينها وقد أنشد فيها :

أكرم به اصفر راقت صفرته   جواب آفاق ترامت سفرته
مأثورة سمعته وشهرته   قد اودعت سرّ الغنى أسرّته
وقارنت نجح المساعي خطرته   وحببت الى الانام غرته
كأنما من القلوب نقرته   به يصول من حوته صرته

وبعد ان يظهر ما له من الاثر البين في الحياة والقوة التي يضمنها لمن هو بحوزته يقول :

انقذه حتى صفت مسرته   وحق مولى ابدعته فطرته
لولا التقى لقلت جلت قدرته

وعقد في ذمه قائلا :

تباً له من خادع مماذق   اصفر ذي لونين كالمنافق
يبدو بوصفين لعين الرامق   زينة معشوق ولون عاشق

والدرهم والثراء في الادب العربي يحتلان مكانة رفيعة، وهناك قول ابن دريد في مقصورته :

عبيد ذي المال وان لم يطمعوا   من غمرة في جرعة تشفي الصدى
وهم لمن أملق اعداء وان   شاركهم في ما أفاد وحوى

واليك قول المتنبي بعد ان اخفق في النبوة وطلب الولاية حول وجهه شطر المال فقال :

تركت السرى خلفي لمن قل ماله   وأنعلت أفراسي بنعماك عسجدا
وقيدت نفسي في هواك محبة   ومن وجد الاحسان قيداً تقيدا

هذه نظرة خاطفة في المال وأثره في الادب ولا عجب ان نحن رأينا الشعراء يتهافتون على ذكره ويسعون جهدهم في طلبه، ولكن ابا العتاهية نراه يقول بعد ان زهد وتقدمت به السن ويروى انه كان على جانب من البخل :

اذا المرء لم يعتق من المال نفسه   تملكه المال الذي هو مالكه
ألا انما مالي الذي انا منفق   وليس لي المال الذي انا تاركه

وجملة القول نرى ان المراد من المال صيانة الاعراض وعز النفوس، وقضاء الحاج والترفع عن السؤال، وآخر رزق المرء المسألة، ونختم بقول ابن دريد .

وللفتى من ماله ما قدمت   يداه قبل موته لا ما اقتنى
وانما المرء حديث بعده   فكن حديثاً حسناً لمن وعى

عيسى ميخائيل سابا

ازمة الروح في حضارة الخوف ...

بقلم عدنان السبعي

ليسانسيه في الفلسفة ودبلوم في التربية

★

في ثنايا العالم المعقد المتشابك ، وبين مغارات القلق واحراج الخوف . فوق قشرة الارض ، وعلى سطح الوجود ، وبين صرير الآلات في المعامل وصراخ الجرحى تحت الانقاض .. يعيش الانسان المتحضر اليوم بجسمه !! . اكول ، نهم سريع التعب ، محطم الاعصاب ، يجري وراء كل شيء ... وكل لا شيء ! .. يندفع بالوسيلة لتحقيق اية غاية ، وما اكثر الغايات لديه .. ان كل وسيلة عقيمة ممتنعة تصبح غاية في ذاتها منذ ان يضربها القدر بالعقم ويجعلها صعبة المنال ، وان كل بارقة متلألئة تلفت الانظار بانوارها المخادعة .. تصير لديه غاية الغايات التي يتكشف فيها معنى الوجود ومغزاه !! .

انسان اليوم .. انسان مرهق محطم وهو احد رجلين :

رجل قد اغراه النجاح وقوى ساعديه ، فاذا ترك انتصاراً فانما يتركه لينتقل الى انعقاد أبهر واغنى ، ومن هنا كان معنى الحياة بالنسبة اليه كدح يسبق الموت ويسابقه ، انه نصب متواصل ، يتضخم فيه المال وتنمو الارباح ، بأي ثمن تدفعه الجماهير الكادحة بدمها وعرقها ، وعلى حساب اي كان من المخلوقات الضعيفة تقدمه اعصابها ولحومها .. ورجل قد اقعده العجز ، وكسر ساقيه العنف ، فاستسلم الى احلام اليقظة يعوض بأوهامها ما فاته من حقائق الوجود ، فانطوى على ذاته يجتر اليأس بمرارة ويمضغ بذور الموت .. على حافة الموت .

ولا تظن ان ثمة فرقاً كبيراً بين الرجلين ، فان الطبيعة أبرع الموجودات في الانتقام ممن يتخطى قوانين الوجود . ولهذا فانك ترى الرجلين يلتقيان في ارض واحدة وعلى مستوى واحد .

انهما يلتقيان في جزيرة الخوف ! . اجل فكلاهما قلق واجف وكلاهما تهتز نفسه فرقاً ، تنتابه اشباح الذعر . وتخيم عليه مخاوف المصير .. وبعد فلا تسل عن مصائب الحروب وكوارث الفوضى ، لا تسل ايها الانسان عن هؤلاء المشردين التائهين .. لا تسل عن الاطفال العراة الجائعين ، لا تسل عن الامهات ، يندبن ازواجهن ، والاولاد يبكون آباءهم واخواتهم .

لقد رأيت كثيراً من الاوربيين الشباب الذين يريدون بكل قلوبهم ان يهيموا على وجوههم ليتخلصوا من اوربا وبأي ثمن كان .

وقد يكون هؤلاء اشجع من غيرهم ، اولئكم الذين يئسوا من الحياة .. فشلت في نفوسهم اعصاب الحركة والحس .

انني ارى كل يوم مجتمعات تتمزق .. وانني اشهد كل يوم دولا تتحطم وشعوباً تئن ، وتسري في جنباتها انهار الالم . هذه امة تصيح وتلك امة قد اشرفت على الهلاك .. وهناك ثالثة قد اصيبت بمرض الوجوم وفي المجتمع الواحد .. اجل في المجتمع الواحد ترى عدداً من القطع الممزقة بقدر افراده !!

وبعد فأن البشرية اليوم تمر بأدق مراحلها ، واخطر اوقاتها ،

فما يهدد الحضارة الانسانية اليوم ليس فقط اكتشاف القنبلة الذرية الهائلة التي تجز الملايين في لحظات ، (فذلك عامل ثانوي خارجي) وانما يعمل على تهديد المدنية وتهديمها جملة من العوامل الفتاكة ، اظهر ما فيها طاعون خبيث قد تأصل في الروح الانسانية في الصميم .

اجل فان روح الانسان اليوم ، قد غمرتها امواج من التحلل ، فهي تهبط في انحدار عنيف مستمر ، ذلك الانحدار الذي صعده الجسم والمادة .. والذي صنعه العلم والعقل ليكون مثابة للصعود الانساني دون ان يعطنا الى انه سيكون مزلقاً تهبط عليه الروح .

***

قد يكون من العبث ان نقول بأن ثمة ازمة روحية تنتساب الانسان دون ان نحددها ونبين مظاهرها واشكالها ، فالازمة تمتد من الفرد الضائع التائه لتصل الى العائلة المنحلة المتفككة ، لتمر وتنساب الى المعمل والمزرعة والمتجر ، ولتحيط بالامم والاوطان كلاً على حدة .. ثم لتضم البشرية في نطاق واحد .

وسنحاول في الاعداد القادمة ان نبين عناصر هذه الازمة بازاء كل من الفرد والمجتمع . ازمة العصر الحاضر ، ليست كتلك الازمات السابقة التي مرت بها الانسانية في غابر عصورها .. فهي ليست ازمة فقر او قلة محصول ، بل لعل مما يضخم الازمة اليوم هو الغنى وزيادة المحصول !! .

لا يهدد الانسانية اليوم نقص في كمية الغذاء العالمي ، ولا يهدد الانسانية اليوم فسولة او ابتسار في العقل البشري . وامل الانسانية قد كانت اسعد حظاً يوم ان كان يعضها الجوع بنابه ، ولعلها كانت اكثر سعادة وطمأنينة يوم لم تكن هذه القوى وتلك الآلات .

ولا نقصد بهذا ان العلم والفن هما السبب في شقاء الانسان . لا ولا نرمي من ذلك ان التقدم العقلي انما يتم بالضرورة على حساب ابناء آدم .. وانما نرى ان شر المصائب على الانسان هو الانسان نفسه !.. فالعقل والعلم ، والفن والازدهار .. كل هذا ليس الا أداة طيعة في يد من يستخدمها واذن فالمسؤول لا يمكنه ان يكون الاداة ، وانما اليد التي تحرك الاداة .. ان الذين يتهمون العلم والعقل لا يصيبون كبد الحقيقة اكثر ممن يتهم المسدس او الرصاصة التي تصيب الانسان في مقتله . فالمسؤولية لا تقع الا علينا نحن .. كما لا تقع الا على القاتل .

انها تقع على الذي يقنع بالاداة ويتمسك بالوسيلة ويلهو في الطريق فينسى الغاية ويدع النهاية ويضيع عن الهدف ..

وعلى هذا فنحن لا ندين العلم والعقل كما يفعل كثير ممن يجذبهم العجز الى اسفل الزمان فيتقاصون الى الوراء . ويحيون في الماضي .

ان الذين يفتشون عن سعادة البشر في مقابر العلم والعقل لن يجدوها متربعة في قمة زمانهم حية مزدهرة ، وانما عليهم ليجدوها ان ينطووا في كهوف الخالف او في متاحف الاقدمين ليقفوا عندها محنطة مطيبة عطرة . وكذلك فالذين يظنون ان سعادة البشر كامنة في غير ذواتهم او أنها تتحصل بالعقاقير والادوات ، لن يظفروا بذات تسعدهم او تغنيهم .

.. لن نقول للعلم والعقل تأخرا لتصلا الى الروح ، وانما نقول أسرعي ايتها الروح لتتقدمي الركب ، ليسر كل من العلم والعقل في طريقه الذي خصته به الطبيعة ، ولتتفتح قلوبنا لتلقف في رضا وحبور محدثات العلم ومكتشفات العقل ، ثم لتصنع افئدتنا حول ذلك كله طاقات من وردات الروح ، لتفوح ازاهير انسانيتنا ، ولتنمو وتخصب نبتات مشاعرنا .. ولتخفق في سماء الحب والخير حمامات السلام بيننا ، لن نقول للغرب قف وتأخر بماديتك ليتقدم الشرق بروحيته وانما نقول هلم فانهض ايها الشرق وانفض عنك اوضار القرون وغبار الدهور ، تسلح بسلاح الغرب وتمسك بعلم الغرب ، وادواته وآلاته !.. ولكن .

ولكن اياك وان تنسى رسالتك الاصيلة في الوجود ، اياك وان تنسى ان تضيء المشعل في يمينك وان ترفعه عالياً ، كما كنت تفعل دائماً فوق الكون .. اياك وان تنسى المشعل الذي كان وما يزال امل البشرية المفقود ، ونورها الصاعد ، المشعل الروحي الذي اسرجه الانبياء والمصلحون بعصارات قلوبهم ودماء اجسامهم .

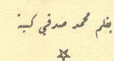
ايها الشرق .. لن تراني اطلب من الغرب ان يخرج من ضجيج المعامل وظلمة المناجم لينصت الى مواعظك وارشاداتك . فذلك لعمرى طلب المستحيل وانما تراني احملك مسؤولية الاجيال ايها الشرق . في ان تكون المثل الصالح والقدوة الطيبة فترسل انت ، نعم انت الذي ترسل من شعاعات سراجك .. ما يخترق ضجيج المعامل وظلمات المناجم .

ولتخرج الجماهير الكادحة والملايين العاملة تتنسل في جدول الروح لتسبح في جوار النجوم خالق الروح .

دمشق — هدنان السبيعي

قيود الفن

الى اخي الياس خليل زخريا . الذي حمل قلبه على يده . . واغترب مجنحاً في عنف الكرامة . . اقدس فيه . نبل حريته



بقلم محمد صدقي كبة

☆

أخي أيها الغريب التـائه . . اكتب اليك من وطني الى غربتك ، اشكو اليـك هذه الشكوى الاليمة ، وانا اقبع الآن متزوياً في احد اركان هذا المقهى الصغير ، بعد الساعة الثانية عشرة مساء ، وقد اخذت احناني ترتجف من البرد القارس ، انتظر قدوم الترام الذي يخترق المدينة من وسطها الى ضواحيها ، حتى استقله هارباً الى ملجأ آخر الوذ به هذه الليلة من شر مـا يعصف بنفسي من هموم ومتاعب ، ومن سوء ما اخشى ان يدفع بي الى ذلك المكان المعروف الذي يضم كثيراً من الاصدقاء .

ان المجتمع هنا . . يقف كله ضدي ايها الصديق جامعاً قبضته الهائلة ، هاوياً بها على ام رأسي في جبروت عاصف ، كل رغـائبه رعونة هوجاء ، . كلمـا انذرته وادعاً بمصيره الذي سوف يلاقيه ، زادت فورته في الضلال ، وثقلت على عيونه غشاوة الاغراق في اوهامه الممروضة الرعناء .

نعم يا اخي . . كلما حاولت ان ارفع امامه مصباح الحقيقة الفاضحة للترهات التي يسدر في ضلالها ، أبصرُ السائرين في موكبه بالاوحال التي يخوضون فيها ، اغلق عيونه عمـا اريد ان يبصر ، واستجاب مأفوناً لمن يدفعون به نحو الهاوية . وهو يصيح بي في استكانة ذليلة مشيراً الي قائلاً . . ماذا ايها المفكر الجديد . . ماذا تريد .؟ انك لا تنير لنا ولكنك تشعل النـار فيما حولك وحولنا ، يا حامل المعول . انك هـدام تحب الهدم ، ولا تملك قدرة على الانشاء . .

أرأيت يا اخي .! .

أعرفت كيف تقبع نفسي جانحة بين ضلوعي تنتظر لحظهـا الحاسمة ، وقد استقر لديها ان اقوى انسان في الوجود ، انمـا هو الفنان ، الذي يقف وحيداً ضد اباطيل مجتمعه وترهـات قيود الفاسدة ، يحيا جاهداً في عزم كله ثورة ، وثورة كلهـا اخلاص ، واخلاص كله وفاء . . ووفاء ليس الا مضاء العزم وكرم البذل وعظمة التضحية .!. أرايت فن الفنان يتفاعل في وعاء نفسه الجياشة ، ينصهر مع دمائه ويسري من شرايينه فيندفق مع انفاسه الدافئة التي تنطلق في حيوية كلماته التي يكشف بها غطاء الخداع المضلل والوعود المكذوبة التي يسدر المجتمع المريض في اوهام زيفها الباطل ؟!

هذه يا اخي . . دنياي .

وانا اكتب اليك في غربتك . وانت مشرع الجناح هائم في ذات نفسك التي بين جنبك ، حر فيما لا يملك عليك احد . . وقد استجابت نفسي لما يفزع بها من عواصف الايمان القوي في ان لها الحق ان تفكر في حرية كما تشاء . . وان تقدم صور تفكيرهـا للبشرية . دون ما حجر على افكارها ، او تقييد لحرية ايمانها . فأنا لا أومن ابداً بحق سلطة ما . على ان تجبرني ان الغي عقليتي ، وان افكر بغير ما يحلو لي ، او ان اسير في طريق ارى انه مضلل ، او فيه امتهان لحرية العقل السليم ، او خيانة للكلمة المظلومة التي اسمها : الانسان . . لان ضمير الفرد ، الفرد الفنان . لا يمكن ان يسود عليه قانون من قوانين البشر . . سيادة فيها شيء من الارغام على اعتقاد مبدأ من المبادىء . او لون من الوان التفكير .

اما ان تفرض قيود على ما اكتب لبني قومي . او تحول موانع بين ما أشيعه في عشيرتي من افكار اعرضها على نفوسهم ليجادلوا وجه الصواب فيها من الخطأ . . فهذا هو ما اشكو اليك منه ، دون ان اجمل الشكوى كل ما افعله في سبيل حرية عقلي وايماني .

وبعد . فقد اقترب الترام يا اخي . فانتظرني ريثما اصل الى

مكان جديد أتم لك فيه هذه الرسالة .

***

المصابيح هنا ايها الغريب في غربته تحقق خفقاتهـــا الاخيرة ، وقد بدأ ضباب الصباح يهبط قليلاً قليلاً في هدوء الى سطح الارض ، معانقاً افرع الشجر واغصان الازهار ، واشباح ابنية المدينة المجنونة قد جثمت من بعيد صامتة تستقبل اليوم الجديد . وهي تتوعدني بالشرور وعظائم الامور ، فيا لو وهنت عزيمتي واستسلمت جباناً اضع قدمي وعنقي في سلاسل قيود المجتمع الصـــاخب الذي راح يجر حوله ملايين المساكين ، كما تدور الثيران حول الساقية معصوبة العينين تخرج من بطن الارض ماء للمتمتعين بالحياة ! .

الصباح هنا ، يبدو جديداً على حياتي التي اخترتها لنفسي حيث اقيم هنا عند صديق من عمال النسيج الذين ضاقت المدينة بسكنى امثالهم في قصورها ، وها هو ذا يعد لي طبق — الفول المدمس الخالد — لنتناول معاً وجبة الافطار قبـــل ان يقطع على قدميه ، الخمسة كيلومترات التي تفصل بين مسكنه والمصنع .

آه يا اخي .. لو انني نشأت رضياً لم يولد معي حبي للملايين التي اعيش معها في هذا الوادي الحبيب . آه لو كنت قد استطعت ان اهرب من شيـــاطين الحرية التي تعبث دائماً بالكمية المدخرة في اعصابي من دماء الوطنية .. لعشت مثل غيري من زملاء الدراسة هادئاً ناعماً لا اكتب الا عن القبلة والساق والعناق ، ولا احفل في حياتي الا بانتهاب اللذة والمتاع ..

أسخرت مني .. ؟ ..

لا .. لا أيها الصديق .. أنني لا اقبل ان أبيع متاعبي بأي شيء من متاع الحياة الهادئة الوادعة . لا أقبـــل ابداً .. فمن ذا الذي كان سيمنحني شرف مطاردة الحفاظ الكرام على سوء الاوضاع القائمة في حياتنا . حتى نظل نرسف هكذا في الاغلال ... ؟

انني اخترت هذا الطريق ، وانا لا اخشى الغربة في وطني ، لانني لا اقبل ابداً ان يقاسي ولدي ما قاساه ابي من قبل ، وما اقاسيه انا الآن من ظلم واهوال ...

ان غربة الوطني في وطنه او منفاه يا سيدي .. انما هي دفعة من التحرر الكريم ، تمتلىء بها النفس الابية جمالاً ، وتتزود منها بزاد الرجولة الحقة التي هي ابدع صفة يتحلى بها الابطال ...

وان الذين فرضت عقلياتهم على نفوسهم الا ان يتزودوا لحب اوطانهم بالمتاعب وركوب المخاطر ، لهم الذين كتب لهم ان يجوزوا اوشاب النفوس الضالة ، وان يجوسوا خلال الديار ، ليتعمقوا في دراسة اغوار المشاكل ، حتى يفوزوا بابلغ ما يصلح حال مواطنيهم المقيمين معهم في ربوع المظالم منذ اجيال .. هؤلاء هم ابناء الشعب .

هم الذين يربطون حاجته بواقعه ، واحساسه بدوافعه ، هم الذين يدفعون عجلة تطوره نحو الامام ، كلما تقدمت العجلة خطوة ، سقط الصرعى والشهداء منهم وهم يبتسمون .. بعضهم يبتسم في الغربة ، وبعضهم يسقط وهو اليها في الطريق ، اما الجميع ، اما الكل ، اما الباقي ... فهؤلاء هم الشعب ، هم الام الرؤوم . التي سوف تنجب في المستقبل جيلاً جديداً من الاحرار الذين لا يقبلون للملايين من مواطنيهم الغربة في بلادهم ، ولا حياة الجوع والعري والمرض .. في بلد اصدق ما توصف به .. انهـــا بلد الخيرات والثمرات والجمال ..

وتسألني يا اخي عن اصدقائي وقرائي .. وكتبي .. ؟ ماذا حدث لدنياي في هذه المعمعة التي اخوض الآن امواجهـــا مشرداً من مكان الى مكان ... ؟

يا اخي .. انني لا احفل بهذا .. انني اعرف نفسي جيداً . واعرف الناس معرفة صادقة ، معرفة الاكواخ التي ادخلهـــا ، والوان الحديث التي اتخاطب بها في كل مكان مع الوان متباينة من الناس ، واشكال مختلفة من العقليات والمنازع ..

انني وهبت .. دون ما ارجو ان انال اجراً من اصدقائي او عامة الناس ... كل الذي يؤلمني الآن .. هؤلاء الذين تعودوا ان يأخذوا ... من ذات نفسي .. انهم دائماً في حاجة الى ما اقوله لهم ، كما انني في حاجة الى ما اعيشه بينهم ! .. اتراهم باختفـــائي عنهم سيسكتون .. ؟ اتحسب ان غربتي عنهم سوف تنسيهم ما كنت لهم اقول .. ؟ اتظمأ النفوس وترضى بالعطش .. ؟ أتجـــوع القلوب وتصبر على الزاد المسموم .. ؟

ابداً .. ابداً يا اخي ..

ان من خلف الابواب وداخل الاكواخ انات تتجمع زفراتها المتألمة ، وبين ضجيج الآلات ايدي تتعاهد .. وفي ظلام الميادين يلتقي كل ليلة مستضعفون وحيارى ، يسأل الجميع بعضهم عن المصير فتلمع عيونهم ، وتشتد خفقات قلوبهم ، وهم يمدون انفاس الغيظ المكتوم . ثم ينهي مثلي ومثلك آحاد من بينهم ، يحملون قلوبهم على ايديهم ، ليصعدوا ارقى مراحل الحياة ...

وبعد .. فاحييك يا اخي من غربتي في غربتك ، وسلاماً الى المغتربين في كل مكان ...

دمنهور — مصر

محمد صدقي كبة

المامة بخصائص الاسلوب في العصر العباسي

بقلم مدحت اسماعيل

★

مثاله الاسلوب العلمي انه يتميز عن غيره من الاساليب ، بالسلاسة ، والبعد عن التكلف ، والقصد الى المعنى مباشرة من اسهل الطرق واقربها ، ولا يخلو النص العلمي من الوضوح الذي هو الصفة الاساسية المميزة له من غيره . وقد لا نبذل كبير جهد لتفهم قطعة علمية اذ هي خالية من المحسنات اللفظية كالجناس والطباق وما الى ذلك وهي خالية من حوشي الكلام وغريبه ، فتوفر علينا بذلك التباس المعنى ولا تضطرنا الى الرجوع الى قواميس اللغة ، وهي مجردة من السجع الذي يقيد سلاستها ويشحنها بشتى انواع الصعوبات . كذلك كان الامر به في العصر العباسي فالكاتب يومئذ كان يجمع جهده لكي تتوفر السهولة في كتابته ولكي يكون بعيداً عن التكلف فيلتمس له طرق المعنى من اقرب طريق ممكنة . الا انهم — اي الكتاب — لم يستطيعوا ان يتنصلوا من السجع تماماً كما هو مطلوب ومفروض في الكتابة العلمية ، فكأن السجع غريزة فطرية تلازمهم أنى رحلوا وحيثما حطوا ، ومع انهم لم يجيزوا لانفسهم استعمال السجع في المواضيع العلمية التي يعالجونها الا انهم استعملوه في مقدمات كتبهم فشحنوا هذه المقدمات بكل ما عندهم من سجع ملائم او غير ملائم قريب الى الذوق او بعيد عنه ونستدل على ذلك من مقدمة المقدسي في كتاب (احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم) التي نراها مشحونة بسجع لا يستهان به ، ومن مطالعتها مرة واحدة نشعر بركاكة هذا الاسلوب العلمي الذي يتخلله الكثير من السجع ونرى كيف ان المعنى يتعقد من جراء ذلك مثال قوله : واحببت ان اتبع سننهم واقفو سننهم واقيم علماً أحيي به ذكري ونفعاً للخلق أرضي به ربي ، ووجدت العلماء قد سبقوا الى العلوم فصنفوا على الابتداء ثم تبعهم الاخلاف . . الى ان يقول : وانفرد بفن لم يذكروه الا على الاخلال — ويقصد بذلك الخلل — فمن حيث الاسلوب في هذه المقدمة نرى اجمالاً وضوحاً وسهولة وقصد الى المعنى من اسهل طريق واقربه ، اما هذا الملل التي يتسرب الى نفس القارىء ، وهذه الركاكة التي تظهر جلياً في المقدمة فكل ذلك ناشىء عن التزامه للسجع .

ومع كل هذا اذا استثنينا مقدمات مؤلفات الكتب العلمية في العصر العباسي فاننا نستطيع ان نحكم على بلوغ الاسلوب العلمي اقصى درجات رقيه ، نستدل على ذلك من المؤلفات الضخمة التي وصلتنا ومنها : كتاب الحيدة ، واحياء علوم الدين واسلوبهما ممتع خال من مختلف المحسنات اللفظية ويصلح لان يكون نموذجاً للاساليب العلمية ، هذا وان سلاسة الجمل وقوة تركيبها وسهولة فهمها من خصائص الاسلوب العلمي الرئيسية ونحن نعلم بديهياً ان السبب في توفر هذه الخصائص في الاسلوب العلمي هو القصد الى التعبير عن الافكار بصورة صحيحة ومفهومة ، فتدوين علوم الجغرافيا او الرياضيات او الطبيعيات لا تحتاج الى سجع ولا الى جناس او طباق او تورية ، كما انها لا تحتاج الى جمال او تألف في الاسلوب او الى كلمات غريبة وجمل عويصة التركيب ، كما انها لا تطلب من المؤلف ان يسبح في عالم غير متناه من الخيال وانما تحتاج الى استعمال الكلمات المعروفة في اللغة بصورة صحيحة والى التعبير عن الافكار باقرب طريق ممكنة ويقصد منها ان تكون مفهومة لا تؤدي معنى غير المعنى الذى يقصده الكاتب .

ولا شك في ان الادباء العباسيين وعلماءهم قد انتبهوا الى جميع هذه النقط المهمة ابان تأثرهم بالحياة الفكرية وتدوينهم لمختلف العلوم ، ومن البديهي ان تكون حياتهم الفكرية في ذلك العصر قد بلغت غاية النشاط ، ويدلنا على ذلك هذا العدد الضخم من

المجلدات التي الفت في كل من العلوم والتي كانت سبباً في انتشال العالم من دياجير الجهالة والضلال وانقاذ اوربا من ظلمات القرون الوسطى ورفعها الى اقصى درجات الرقي والسعادة اللذين ترفل في كنفها الآن .

ونستطيع ان نقول اخيراً ان الاسلوب العلمي بلغ في العصر العباسي اقصى درجات رقيه رغم تمسك الكتاب بعادة السجع في المقدمات ؛ فلو اقلع كتاب العصر العباسي عن هذه العادة لما اختلف اسلوبهم العلمي من حيث الرقي عن الاسلوب العلمي الحديث .

اما الاسلوب الفني فيمتاز بوجه عام بتأنق المؤلف في كتابته واكثاره من المترادفات والاستطراد والخروج من موضوع الى آخر، وقد تطرأ على الاسلوب الفني في كثير من الاحيان المحسنات اللفظية ويعتريه السجع وما شابه ذلك . ان خصائص الاسلوب الفني في العصر العباسي يختلف بحسب الادوار التي اجتازتها الخلافة العباسية الاسلامية . ففي العصر الاول كان ابن المقفع صاحب كتابة معروفة تعد نموذجاً حسناً للكتابة الفنية واظهر خصائص هذه الطريقة تفضيلها الاسلوب المباشر على المجازات والخيالات البعيدة ومنها ايضاً السهولة والوضوح فكتابة ابن المقفع سهلة وباستطاعة الانسان ان يفهمها ولو كان على شيء قليل من الثقافة وكان يفضل الازدواج في الفواصل غالباً على العبارة الفخمة والالفاظ الطنانة الشديدة التأثير . وجمله مقطعة ومفصلة تفصيلاً يسهل على القارىء فهمها، وافكاره متزنة ومتسلسلة فهو لا ينتقل من فكرة الى اخرى الا بمناسبة وابن المقفع كان يتوخى هذه السهولة ويتعمدها وقد عرّف البلاغة بقوله : البلاغة هي التي اذا سمعها الجاهل ظن انه يحسن مثلها ، الا ان ابن المقفع لم يكن يستعمل الكلمات الكثيرة الشيوع ويتجنب الالفاظ الغريبة التي سقطت من الاستعمال كما كان يتجنب الالفاظ المبتذلة التي تستعملها العامة ونعني بذلك انه كان يتميز الالفاظ تميزاً . وقد قال : ان الكلام ليزدحم في صدري فأقف لاختياره . وقد وصف اسلوبه بانه السهل الممتنع . فخصائص الاسلوب الفني في العصر العباسي الاول : هي السهولة والرصانة فكان الكتاب يتوخون السهولة والهدوء ويخصون المعنى بعنايتهم ويزهدون بالصناعة اللفظية .

واما في العصر العباسي الثاني فآثار الجاحظ ترينا ان خصائص الكتابة الفنية في هذا العصر كانت تمتاز بأربع خصائص هامة وهي : الاكثار من استعمال الفقرات القصيرة المسجعة او المزدوجة الوصل وتكرار المعنى الواحد في فقرات مختلفة ، وتعمد الهزل والمزاح في كثير من الاحيان ، والاستطراد الذي اولع به الكتاب كما اولعوا بالخروج من موضوع الى آخر ومزج الجد بالهزل، وغايتهم من ذلك تحبيب كتاباتهم الى القراء ودفع الملل عنهم ، فالكتابة في هذا العصر كانت فناً ملؤه الحياة ، وغدت الجملة متموجة لينة في وسعها ان تعبر عن كل معنى جديد ، وآثار الجاحظ ترينا كيف ان الكتاب كانوا يبارون الشعراء فيدبجون الرسائل ويكتبون في الموضوعات الادبية التي كانت وقفاً على الشعراء .

واما في العصر العباسي الثالث، فقد تطورت خصائص الكتابة الفنية واصبحت تمثل الفن المترف وعدلت عن مجراها العربي المطبوع وفتحت صدرها للصنعة اللفظية وذلك تحت تأثير الترف المادي وتمازج الحضارات ، وتظهر هذه المميزات واضحة جلية في مقامات الهمذاني فقد كان اسلوبه يعتمد على الفقرات المسجعة المرصعة ببعض الصناعات اللفظية غير ان هذه الصناعات كلها وان كانت تنطوي على بعض التكلف لم تصل الى حد الاستكراه والسقم ، بل ظلت محتفظة برونقها وجمالها ولطف وقعها في النفس .

اما في العصر العباسي الرابع والاخير فنرى ان الصنعة اللفظية طغت على النثر الفني اعظم طغيان حتى لم يعد للكاتب من همّ سوى ان يوالي بين السجعات ضارباً بالمعنى عرض الحائط وان يشحن ما يكتب بالتورية والجناس والطباق ، وتظهر هذه الخصائص في اجلى مظاهرها في مقامات الحريري ، ومن البديهي ان اقتصار همّ الكاتب على العناية باللفظ يكون سبباً في قلة عنايته بالمعنى وتصبح الكتابة جسماً بلا روح وقراءتنا لمقامات الحريري لا تظهر لنا سوى براعته في رصف الالفاظ وتنسيق الاسجاع . وقد لا يكتفي الحريري بالقافية السهلة العادية بل هو كالمعري في لزومياته يلتزم ما لا يلزم .

واذا ضربنا صفحاً عن هذه الاختلافات البينة في خصائص الكتابة الفنية في العصور العباسية المختلفة فاننا نتوصل بلا شك الى صفات مشتركة في جميع هذه الادوار يتحتم توفرها في الكتابة الفنية وهذه الصفات هي : انقياد الكاتب الفني وخضوعه لملكة خياله تلك الخاصة التي تكون سبباً في فيضان قريحته وتفتق ذكائه فيلتمس التشابيه الموافقة لفكرته والتي تكون سبباً في قوة موضوعه . ومنها ايضاً جمال الاسلوب الذي يقصده الكاتب دوماً فيدفعه الى الاكثار من الاستطراد والترادف .

دمشق　　　　مدحت اسماعيل

ما اغنى سماء الكواكب !

ألقيت في حفلة تكريم الاستاذ جواد نادر مراسل مجلة الاديب ووكيلها في الارجنتين

سألت رفاقي صاحباً اثر صاحب ... أيُمنى بنو امي بتكريم كاتب ؟
أأصبح للآداب وزنٌ وقيمة ... وأُفسح للكتاب صدر المآدب ؟
علي يمين ! كدت انكره اارى ... واحسب اني لست بين الاعارب
واسمع دقات البشائر ، لا اعي ، ... لطول استماعي قبلها للنوادب .
ولست بجار الشؤم ساءت ظنونه ... ولكن ظنوني من بنات التجارب
عفاء على الماضي ، ومرحى بقادم ... من العهد غفار لزلة ذاهب !
تحققت الاحلام يا قوم وانبرى ... كرامكم يحذون حذو الاجانب
يوفون حقاً للاديب عليهم ... متى آنسوا فيه الوفاء بواجب .
غدونا نغض الطرف عن جاه منصب ... وننظر للاشخاص ، لا للمناصب
فما قل في المقدار من قل ماله ... وكاثر ارباب الغنى بالمناقب
هنائك يا اقلام بالقلم الذي ... اتيح لباريه اجتراح العجائب
فلولا « جواد » لم تجدك سحابة ... على رغم ما امطرته من سحائب
أليس عزيز في الصحافة ان نرى ... بساحتها فرداً عزيز الجوانب ؟
يجود بما يملي عليه ضميره ... ولو كان في التحبير قطع الرواتب .
فما جردته من اباء جريدة ... ولا امتهنته مهنة للشوائب
يسيل للقراء ورد بيانه ... وقد ظمىء الساقي كرامة شارب
ويمشي على الاشواك متزن الخطى ... وكم حوله من عاثر بالعنا كبي
وكم نازل للحرب غير محارب ... وكم كاتب بالاصغرين محارب
ضحايا فلسطين العزيزة بينها ... ضحايا جهاد من وراء المكاتب
على صحف ، فيض الجراح مدادها ... واعمدة قامت مقام القواضب
لها خط نيران على جبهة الوغى ... وصدر به تحمي ظهور الكتائب
عطفنا عليها «فاشتركنا» طواعة ... وكرهاً ، وقلنا تلك ضربة لازب
وكرم نادينا الكريم رجالها ... بشخص اديب عبقري المواهب
يجرر احداها فيرفع شأنها ... وما حررته من ديون رواسب .
سلوا اسرة الابطال عن شهدائها ... وما نابها من مفجعات النوائب «١»
هوى كوكب منها على اثر كوكب ... الك الله ! ما اغنى سماء الكواكب !
ذكرناك والحفل الجليل مهلل ! ... لنجلك ، يوليه اجل المراتب
زكا الفرع بعد الاصل يفتر زهرة ... على امنيات للحمى ورغائب
بلوناه في البلوى فكان مهنداً ... ضربنا به وجه العدو المضارب
قؤولاً متى كان المقال هداية ... فعولاً متى حان اقتحام المعاطب

يسيل على حد اليراع فؤاده ... كما سال في الهيجاء دم الاقارب
فلسطين دنياه ، فلسطين همه ... ومذهبه المختار بين المذاهب
أيعنيني حبي له من مديحه ... واحسن ما في الحب مدح الحبائب
لكل مقام شعره وشعوره ... وحظي من الاثنين حظ التناسب
وكم عاب شعري بالسخاء مقصر ... يحن الى ادراك تلك المعايب
سلام على آل الجواد وصحبه ... وكل « جواد نادر » في الاعارب

بوانس ايرس — الارجنتين

جورج صيدح

«١» اشارة الى انسباء المحتفى به الذين استشهدوا في فلسطين .

على موكب الامواج

أرأيت امواجاً بدجلة سائرات للخليج ؟
تسري الهوينا هادئات ليس يعلوها الضجيج
متدافعات في كآبتها بتوديع المروج
والنخل في الشاطي يحييها باكليل بهيج
أسرابه نثرت شعور الحاسرات الحائرة
والعشب يزحف هاوياً بقوامه الغض الطري
ليمد كف مصافح للموج ذي الخلق السري
فيجيبه متواثباً من حشده المتكبر
والسد يجثم صامتاً في وجهة المتحير
وعليه تتكىء القصور مهجات حاسرة
والقارب المربوط في غل الوثاق تهيجا
متميزاً في غيضه بين الكآبة والرجا
ثارت عواطفه ودمدم ، حقه ، قد احرجا
لا يستطيع السير مع خل يهاجر فاستجار
رب لثورة عصفت به ضد القيود الجائرة
سلمى ذكرتك في وداع الموج للشاطي النضير
ووداعة الطير الجريح جناحه دام كسير
يخشى البقاء على التراب وليس يقدر ان يطير
وذكرت دمعك اذ لمحت الطل في خد الزهور
وذكرت طيب شذاك في نسمات روض عاطرة

بغداد ... ضياء الدخيلي

قصة عينين

مهداة الى الاستاذ وديع فلسطين

• شوقي الى المجهول قد اعياني ... والسحر في الاغوار قد اضناني

يا زورقي الوهنان في بحر الخفا   طال الرحيل .. وما بدت شطآني
ليس الفضا وطن الطيور وانما   تسمو به لتؤوب للافنان
انا باحث والدمع يسأل صامتاً   ما القصد من هذا الوجود الفاني؟
ولقد رأيت الكون متسقاً سوى   فوضى الحياة بعالم الانسان
فكفرت من ألمي على وصب الورى   وتقاذفتني قفرة البهتان
والآن في عينيك انظر باحثاً   فأحس سر العالم الروحاني
وكأن سر الكون صار بمقلتي   يرنو الى جسد له نوراني
فالكون من عيني يرامق نفسه   من بعد ما قد ذاب في وجداني
اني عرفت الآن سر حقيقتي   فأنا وهذا الكون مؤتلفان
لما طوتني الهدب في اظلالها   احسست دفء النور من ايماني
ونظرت للدنيا بعيني طائر   قد راح يرمق عشه بجنان
وتسللت روحي مع النسيم الذي   يسري مع الاحلام في تحنان
انا عاشق بحراً خفياً لا يرى   قلبي له شطٌ .. فأين الثاني؟
متخيلاً حلمي عليه سفينة   تجري بلا قصد ولا ربان
انا عاشق افقاً بعيداً غامضاً   بحر السنا فيه بلا شطآن
كم خلت نفسي والاصيل كأنه   حلم النهار النائم الوسنان
طيراً بأجنحة النسائم موغلاً   في غامض الاجواء والاكوان
ولقد يطل البدر من سحب الدجى   فأحس اني همسه النوراني
فأطل من حجب الغيوم على الثرى   وأضمه بأبوة الرحمن
وكأن روحي نسمة غيبية   تهفو لمهد اليائس الاسيان
كم هدهدت روحي اليتامى في الدجى   وانا اليتيم الفاقد الخلان
يساقط الدمع اللهيف مهوداً   قلبي .. بنهر غامض الارنان
فأنام في حضن القتاد ومهجتي   تدعو بحلم الخير للغفوان
الحب جردني فصرت حقيقة   تصغي لقلب الكون في امعان
جنب الغدير السمح انشد صدحتي   لتزور سكان الفلا الحاني
فكأن للنغمات ظلاً نادياً   فوق الجديب حنا على صديان
احببت اعدائي بعطف لاهف   وسموت عن حقد وعن اضغان
انا هتفة للكون جلجل صوتها   هيا نقود الموكب الانساني
ما الحب خلواً من رسالة شاعر   قدسية لرعاية الاوطان

الحب جردني فصرت حقيقة   يصغي لقلب الكون في امعان
في زحمة الانغام ارقص ذاهلاً   فكأني للحن رجع ثان ..
يهتاجني حلم الخلود فأنطوي   في اللحن يكسوني كثوب حان
واضم نفسي مغمضاً في سكرة   واغيب عن قيدي وعن ارساني
واطير للافق البعيد كأنني   في مهجة النسمات نبض هان
فاذا احتواني الليل في احضانه   اصغى لخفق فؤادي المتواني

مستأنساً بخفوقه متأملاً   للكون يشرح لغزه بجناني
حتى اذا جاء الصباح حسبتني   نبأ الشعاع الى الظلام الفاني
هو وحي عينيك اللتين اطلتا   من عالم المجهول فوق زماني
عيناك لو تدرين في حدقيهما   افق الخفاء اراه وهو يراني
عيناك اهرب فيهما لو صاح بي   جدثي .. فأهطع راعش الاحزان
عيناك القي فيهما حريتي   حرية النسمات في الوديان
عيناك هدهدتا فؤاداً واجلاً   بانامل النظر الوديع الحاني
والجفن لو يهتز احسب انه   كف الامومة للوليد العاني
فاذا به من لمس هدبك وادع   يهتز في مهد من النسيان
ضميه يا اماه .. ضمي ليله   فالفجر في عينيك حلم ران
اماه اني انزوي متحجباً   من شقوتي في هذه الاحضان
هذا شبابي الطفل اجفل راعشاً   خبأته في صدرك الحنان
ضمي يديك عليه . حلي موثقاً   للشعر .. فهو خميلة بجناني
ضمي الذي امسيت في احلامه   وطن الغريب الشارد الحيران
وطني الذي شبت به امنيتي   نادته احزاني .. فهل ناداني؟

القاهرة   محمد الجبار

مناجاة الروح للروح

الى وليد لبنان صديقي الشاعر ايليا ابو ماضي

خذني الى ارض الرؤى   لارى سما وطني معك
وارى حمائم نجده   سحراً تشنف مسمعك
ونسيم حنين يهب   مساً فيلثم اربعك
وشذا هياكل قفره   ابداً تقبل موكعك
خذني لانشق تربه   نداً يضمخ موقعك
واصافح النصب المقدس في الشآم، ومجمعك
وشقائق النعمان في   حبب تحاكي ادمعك
خذني الى كوخ الربى   ليس الخورنق مخدعك
ودعت لبنان الحبيب وليته ما ودعك
احلام ايام الصبا   ابداً تقلقل مضجعك
خذني اذا حان السرى   اني كظلك اتبعك
انا عاشق كالطيف يهوى   الجامحات واذرعك
هلا ضممت خياله   ضماً يطبق اضلعك
آسي ألم به الاسى   دنف تحدى مبضعك
خذني الى حرمون او   وادي الحرير .. انا معك

تكساس – الولايات المتحدة   الدكتور سليمان داود



طفولة نهد

لنزار قباني - مجموعة شعر - ١٢٦ صفحة - طبع شركة فن الطباعة - القاهرة

شعراء المرأة كثيرون ، ولكنهم في الادب العربي قليلون . ولقد تعجب لذلك ، اي لهذا التقرير ، اذ المعروف المشهور ان امة لم تقدم من الشعر الغزلي ، والشعراء الغزلين مـا قدمته الامة العربية في هذا الحقل ! ! والواقع ان علينا ان نفرق تفرقة حـاسمة واضحة بين شعراء الحب وشعراء المرأة ، واذ ذاك يمكننا الحكم ، ويصح الفصل في الرأي .

شاعر الحب هو ذلك « الانسان » الذي تصباه العاطفة الخالصة ، ولا يتصباه في الحياة غيرها ، ثم يكون من شأنه نشدانها في مختلف الحالات والاطوار ، وتتبعها ووصفها وتصويرها في نفسه وفي غيره ، وهو من وهجها وسناها في افق خاص من الفكر ، يدور اكثر ما يدور حول معان نفسية دقيقة واجواء روحية غامضة كالوفاء والاخلاص والشوق والحنين . وينطلق اكثر ما ينطلق مع الجمالات الروحية البعيدة التي يشارفها وراء جمالات الطبيعة ومغريات آفاقها واكوانها ومجاهلها ، ويحسها في اختلاجات الحياة وآثار حركاتهـا في النفوس والعقول والقلوب ، فاذا اهتز لشيء ، فانما يهتز للعاطفي من الحوادث ، والمؤلم من الحالات ، والرائع من الصور ، والنير المشرق من الآمال الانسانية الجليلة .

اما شاعر المرأة فهو انسان آخر غير ذاك ، اعني ان قيم الاشياء عنده غير قيمها عند زميله ، ونظره للحياة الشعرية غير نظر الاول ، فشاعر المرأة متفلت الى حد بعيد من قيود العاطفة الحارة المحرقة ، وان احس بها احساساً شفافاً من بعيد ، والمرأة عنده اصل ، بينما هي فرع عند ذاك ، فشاعريته متصلة اوثق الاتصـال بحياته اليومية الشخصية ، وليست بكل حياته اليومية ، وانما بجانب منها ، هو مباشرة المرأة والتحدث اليها ومبادلتهـا الاسرار ، والتقلب في اجوائها المادية المباشرة ، والاحتكاك بها احتكاكاً نفسياً ، وما يبعثه هذا الاحتكاك من التفاتات فكرية ، وهزات روحية ، وخواطر شعرية ، فهو لولا المرأة ، اي لولا صلته الشخصية بالمرأة لما كان شاعراً ، ولا كان يكلف نفسه عناء النظم .

وليس من السهل توضيح الفرق بين شاعر وشاعر الا باعطاء المثل ، فعمر ابن ابي ربيعة شاعر امرأة ، اما قيس بن ذريح فشاعر حب ، وطبقة قيس موفورة متعددة متنوعة في ادب العرب ، ولكن طبقة عمر ابن ابي ربيعة فليست في وفرة تلك ولا في تنوعها ولا في تعددها .

واني لاحسب ان ابن ابي ربيعة ظل فذاً مفرداً وحيـداً في اسلوب شعره واسلوب تصرفه الشخصي والعام — ظل كذلك الى ان جاء نزار قباني الشاعر السوري الجديد ، يعيدنا الى ذلك الاسلوب في شعره وحياته ، وربما في تصرفـاته ايضاً . . فهو ثاني « شاعر امرأة » في دنيا الآداب العربية .

يتضح ذلك ، بشكل لا يقبل الجـدل ، في ديوانه « طفولة نهد » الذي صدر في اوائـل الصيف المنصرم ، ولم يكن الشعر ليعطي صورة عن صاحبه ، ويمثله تمثيلاً بارزاً دقيقاً واضحاً ، كما هي الحال في « طفولة نهد » ونزار قباني !

اريد ان اقول انك اذا قرأت قصيدة لابي ربيعة مثلاً ، لا تستطيع ان تحمل عنه فكرة كاملة واضحة ، وانمـا تتكامل فكرتك عنه وتتضح وتتسع كلما كثرت لديك آثاره ، ولكنك تدرك من اول قصيدة تقرؤها لنزار ، ما قد يقوله في الثانية والثالثة ، وما ذلك الا لانه يعيش في جو واحد ، تتلون آفـاقه ، وتضيق جوانبه مرة وتتسع مرة ، ويزهو آناً ويدكن آناً ، ويكون حلواً تارة ومراً تارة ، غير انه واحد ، لا يتحول ولا يتبدل . وهذا ، هذا ما جعله يكرر المعاني ، ويكرر الالفاظ ، ويكرر النسق البياني والطريقة الموسيقية في اكثر من قصيدة ! ولعلك تذكر ان « التكرار » شيء ملحوظ عند عمر ابن ابي ربيعة ، بحيث تحس جو قصائده كلها احساساً لا يتفاوت في نفسك ، لانه لا يتفاوت في نفس الناظم .

وقد قلت ، اول ما قلت : انه شاعر المرأة ، فهو لذلك يعنى بأكثر ما تعنى به المرأة في حياتها الخاصة . فلاحظ هذه الالفـاظ التي ترد على لسانه دائماً : ازرار ، جورب ، ورد ، يا سمين ، مخدة ، درب ، فستان ، وشوشة ، عطر ، شـال ، ارجوحة ، عصفور ،

ضفائر ، صحو ، فراشة ، شمعة ، نجمة ، سرير .

انت من هذه الالفاظ وحدها في جو نسائي صرف ، بل انت منها في « صالون » يعج بثرثرة السيدات واحاديث الآنسات ، وهي بما تخلق من موسيقى ، وتهز في النفس من آمال وذكريات وصور ، تؤلف وحدها كوناً شعرياً خالصاً لا تشوبه شائبة من وقائع الفكر المضني الذي يطغو على اكثر الآثار الفنية العميقة . واعجب مـا فيها ، انها وهي تصاوير مادية توقظ وتثير وتهز !

ولكن عد اليه ، وهو في عـالم آخر غير المرأة ، في حديث الوطن والوطنية مثلاً تجد هذا اللون من الشعر ، اسمع :

بلادنا بالياسمين والندى محصنه

فاذا تحمس قال :

وان غضبنا تزرع الشمس سيوفاً مؤمنه

فهو بين يدي عاطفته الوطنية ، لا يختلف في قليل ولا كثير عما هو بين يدي فتاة يحبها ويحترمها في آن واحد واكبر الظن في شأنه انه لم يمارس الحياة العاطفية بعمق ، ولا عاشهـا بحرارة ، اعني انه « صديق » المرأة التي يشبِّب بها وينظم شعره فيها اكثر ممـا هو « عشيق » . واكبر الظن كذلـك انه لم يجد بين مختلف النساء اللواتي تعرف اليهن ، او تعرفن اليه من تلهبه ذلك اللون الصارخ من العشق الجارف الوهاج ، فجاءت صلاته الغرامية — كما يظهر من ديوانه — متقطعة مبتورة تستقيم في نفسه كلما استقامت في خارجها ، وتلتوي كلما التوت « الملهمة » عليه .

هذا الاستعداد في نفس نزار لمصادقة المرأة ، وهذه المجموعة من النساء اللواتي تعرف اليهن جعلت كيانه الداخلي « سطحياً » الى حد ما ، فما في شعره ما يدعوك الى الكآبة او الحزن ، ولا فيه ذلك المرح الطافي الذي يدل على سريرة مطمئنة وأفق صـاح وضاء . واذا انت قرأت ابا القاسم الشابي الشاعر التونسي ، وعدت تقرأ نزار ادركت الفرق بـين العمق والسطحية في الشعور اذ لا استطيع ان اصوره بكلمة او بجملة او بمقالة .

هناك مسحة من كآبة على شعره منشؤها انه خالط المرأة مخالطة تامة ، وعاش في اجوائها النفسية ، وتقلب في محيطها تقلب الصديق العارف بالدخائل المطلع على اسرار الذات الاجتماعية — لا الروحية الخالصة — وعشرة المرأة تؤدي دوماً الى حالتين : الكآبة والنعومة .

اما نعومة نزار فانهـا ظاهرة واضحة في اغلب ، بل في كل قصائده ، ولا استطيع ان استشهد ، لان كل ديوانه يشهد بنعومته من اول بيت الى آخر بيت في جميع منظوماته .

قد يكون للبيئة الارستقراطية التي يعيش فيها نزار قباني اثرها في اعطاء هذه النعومة لونها القوي البارز ، فهو شبيه بحياته واشعاره بشاعر افرنسي اسمه « بول جيرالدي » حتى سبق الى ذهني بعد ان اطلعت عـلى وجوه الشبه الكثيرة بين ديواني هذين الشاعرين : « طفولة نهد » و« انا وانت » ان السيد نزار قد تأثر بزميله الافرنسي تأثراً كبيراً غير اني لم اطمئن الى فكرتي هذه ، لاني اجهل الكثير من ثقافة شاعرنا العربي ، كما اجهل طرائق نظمه ومدى اقباله على مطالعة الاشعار الاجنبية ، وكان من صديقه الاستاذ سهيل ادريس — حين طلبت بعض المعلومات عنه — ان ابدى ما ابديت من توقف عن الحكم في هذه القضية .

نحن نجهل كل شيء ، ولا نعرف الحقائق الا ظناً حين ندرس اسرار الحياة الفنية عند الشعراء ، بيد ان الحقيقة التي يمكنني ان اثبتها هي ان نزار قباني فتح فتحاً جديداً في الشعر العربي ، ونقل الحياة الغرامية من واقعها العصري المتجدد ، الى افقهـا الشعري الصحيح . وهذا ديوانه « طفولة نهد » مثـال واضح ، ودليل ساطع على هذه الحقيقة .

عبد اللطيف شرارة

عشتروت وادونيس

للدكتور حبيب ثابت – ملحمة شعرية – ٨٠ صفحة

منشورات دار مجلة الاديب

اقوال الشعراء في وصف لبنان لا تعد ولا تحصى . وكل يافع من فتيانه في المدارس وكل غادة من زينـاته في الاخدار او في المروج ، يرويان ، ولا شك ، عشرات الابيات الصادقة في وصف لبنان ، كقول امير الشعراء المرحوم شوقي :

لبنان والخلد اختراع الله لم ... يوسم بأزين منهما ملكوته

وقول المرحوم وديع عقل البلبل الغرّيد في عصره :

ان لم يكن لبنان جنة خالق الـ ... دنيا يكن لبنان شرفة داره

ولكن بين هذه الاوصاف المقتضبة المتقطعة والمطابقة حرفاً بحرف لجمال لبنان وجلاله ، وروعة اوديته وهيبة جباله ، كان لبنان ينتظر في خلال العصور شاعراً يهز المشاعر بملحمة رفيعة بمبناهـا ومعناها ، سامية بمرماها ومغزاها ، تصف اسطورة من ذكرياته المتوارثة مع الاجيال ينسج لها كسوة وطنية من روح لبنان وجماله ، ويستخرج بها روائع الامثولات من نسيج خياله .

فجاء الشاعر المطبوع الدكتور حبيب ثابت من صميم لبنان وطوى القرون القهقرى حتى اتى اسطورة مشتقة من كل ما يشعر به الناس في لبنان من عذوبة ماء ولطف هواء ورونق وجمال ، وسحر حلال ، فتغنى ما شاء وشاء له الهوى والشعر والابداع في غرام الالاهة عشتروت التي خلقها التصور من رغوة البحر بادونيس عنوان الصبا الريان ، ومحط رحال الحسن النادر الفتان ، الذي اشتهر ابداً عن الليوث والغزلان ، في لبنان .

ان كل ملحمة من ملاحم العالم الشعرية بنيت على حادث منفرد تعاظم شأنه في حياة الامة . فالياذة هوميروس اليوناني اميرة ملاحم الدنيا انما وضعت لتخليد غضب أخيل البطل المغوار على الملك اغا ممنون من اجل ابنته ايفيجني وانتهى الامر الى سقوط طروادة في يد اليونانيين .

واينائيدة فرجيليوس الروماني خلدت فرار ايني ابن الالاهة الزهرة من طروادة بعد سقوطها حاملاً والده الشيخ انشيز على منكبيه الى ايطاليا حيث شيد مدينة رومية .

هكذا لكل ملحمة عند الشعوب مرام خاصة تلم بطباع الشعب وميوله وامانيه ، وتنم على دوريه التقليدي والتاريخي في الحياة . ولبنان بطبيعة اقليمه معد لان يكون ينبوع لطف وجمال وهيبة وجلال وعاطفة حب سامية تطاول الاجيال .

والشعر نفحة سماوية ، في الكائنات الحية ، فهو من الاقوال اجزلها والطفها . ومن الاعمال اسماها واشرفها . سئل حكيم ما هو الرقص ؟ فاجاب انه الشعر في الحركة . والشعر في الحركة هو الانتظام والانسجام ، واختيال الاعضاء في الاجسام .

وقد عظم العرب خصوصاً قدر شعرائهم لما كان الشعراء يجيدون ، والسامعون يقدرون ، فيعود الخطباء في طلب الحجج والبراهين الى الشعراء ، مكتفين الدلالة على صحة الرأي بكلمة قال الشاعر .

ومن حسنات هذا العصر انه خلق لنا بضعة شعراء ، والكرام قليل . واوحى الى احد فحولهم هذا الطبيب الحبر رسالة سامية من لبنان القديم الى لبنان الجديد . فسد بها فراغاً في الادب العربي اللبناني كان يأسف له كل حريص على صفتي الاقدام والتفوق في هذا الادب .

وكانت ملحمة عشتروت وادونيس التي جمعت الى لطافة الاسلوب الحديث روعة الشعر الجاهلي .

هذا الاديب الممتاز برشاقة السبك وجزالة التعبير ، متمكن من قواعد الفصحى بعيد في مدى التفكير ، فجاءت قصيدته باسلوبها الفريد ، كأنها مما قيل في لبنان بيت القصيد .

ولم يقف عند ، نظم الاسطورة الشايقة من اساطير لبنان المخضوضر الزاهر ، بشعره المنمق الباهر ، بل اضاف الى ذلك حلة من حلل الطباعة لم يسبق لها مثيل في الكتب العربية . فجاءت ملحمة لبنان خليقة بجمال ادونيس الطاهر ، وحب عشتروت الشاعل وهيبة لبنان الاشم .

وها هي بعض الامثلة منها وما فيها من أجزالة التركيب وسمو المعاني : قال في هيام ادونيس بالبرية :

حدوه فهام بين القفار   بين وحش الفلا وبين الضواري
ان ناب الوحوش الطف حداً   من لسان المراوغ الغدار

وقال في النجوم :

مشاعل في الليل وهاجة   يضيئها الله ويطفيها
فيها رموز بين طياتها   تخبأت عنا معانيها

وقال في انتحار عشتروت حزناً على ادونيس :

وقفت على صخر شديد اصلب   وبجنبها قلب اشد واصلب
وهوت الى حضن المياه فضمها   موج يجيء على المياه ويذهب
ارايت بلور الصباح مشعشعاً   يلهو على وجه المياه ويلعب
ام راعك الزهر الندي مضرجاً   يحمي لمصرعه الاريج الطيب
هون عليك فكل حب زائل   وبكل صدر خافق يتعذب

وقال في الاحلام :

وحولنا الارياح محمومة   تثيرها في الجو اشواقنا
انا طوينا الريح في كفنا   فطارت الريح واحلامنا

وقال في قطرة الماء :

مسحتها السماء على مقلة الغيـ   ـب والقت بها بعين اليتيم

وقال في وادي افقا :

واد تقام به الديانة فذة   اولى شعائرها العنان المطلق
عبدوا الجمال به فكل صبية   عذراء تذبح للالاه وتحرق
هي قطرة الزلال تلونت   بدم على الوادي المقدس يهرق
وتصاعدت في الجو تسري في الهوا   وتذوب في صدر الشباب فيعشق

امين الغريب

العصر الذري

لطائفة من الاساتذة – ١٨٥ صفحة – طبع قسم الخدمة العامة في جامعة القاهرة الاميركية

اذا قسّمت العصور تقسيماً تغلب عليه ميزة واحدة ، قيل ان العالم مر بالعصر الحجري ثم بالحديدي او الفولاذي ثم عصر الفحم فعصر الطيران فعصر اللاسلكي فالعصر الذري . لان كل عصر من تلك العصور عرف جديداً لم يكن من قبل مألوفاً ، وكان لهذا الجديد تأثير بعيد المدى في حياة الانسان الخاصة والعامة .

ونحن اليوم – جرياً على هذا القياس – نعيش في عصر الذرة ، عصر انطلاق الطاقة من سلسلة من التفاعل ناتجة عن شطر نوى ذرات المعادن ، ولا سيما معدن اليورانيوم ، عصر تحول المعادن الى معادن اخرى مما يوطيء للتفكير بان ينحو نحو تفكير السلف ، فيرد عناصر الكون الى عنصر واحد قد يكون هواء ، وقد يكون ماء ، وقد يكون ناراً كما حسب طلائع فلاسفة اليونان ، بل انه عصر يهيء للمرء ان يبدل من اسس فكره لان الذهب قد يستحيل رصاصاً والفضة قد تغدو فحماً وما الى ذلك مما يفقد تلك العناصر الكريمة قيمتها ويعرّض اقتصاد العالم لرجة عنيفة ربما كانت نذيراً بكوارث .

وقد شغل علماء الغرب بهذا الطارىء الجديد ، طارىء الطاقة الذرية ، وعني كذلك رجال السياسة بهذه المشكلة الجديدة ، مشكلة القنبلة الذرية ، وغدا هؤلاء واولئك في شغل شاغل بأمر هذا التقدم العلمي الجديد وما ينطوي عليه من مشكلات وما يمهد له من تطورات وما يتعلق به من تشريعات وسنن .

لذلك كان من الحتم علينا معشر الشرقيين ان نوجه انتباهنا الى الذرة وطاقتها ، ومن حق انفسنا علينا ان نوالي بالدرس والبحث والاستقصاء سير هذا الكشف الجديد حتى لا نكون متخلفين ، مكتفين بالاعراب عن دهشتنا من قوة انطلاق الطاقة وما ينشأ عنها من دمار لا يحصر مداه .

وكان في صدارة المعنيين بأحوال العصر الذري قسم الخدمة العامة في جامعة القاهرة الاميركية ، ولم تكن عنايته مقصورة على النطاق المعهدي الضيق ، بل كانت متطلعة الى ارشاد الجمهور ارشاداً سديداً الى الخطوات الواسعة التي خطيت في هذا المضمار وتوجيه نظره الى النواحي المتباينة التي تكتنف الطاقة الذرية ، وكانت وسيلة القسم لتحقيق هذا الوطر ان ينظم سلسلة من المحاضرات العامة يشترك فيها اساتذة مقتدرون يعالج كل منهم جانباً من جوانب العصر الذري . فألقى استاذنا العلامة فؤاد صروف ثلاث محاضرات نفيسة عن « قصة القنبلة الذرية » و« الحرب ووسائل تدميرها للانسانية » و« السيطرة على الطاقة الذرية وتوجيهها لخدمة الانسانية » .

وتلاه الدكتور طه حسين بك فتحدث عن وحدة العالم او فنائه ، وعقبه الدكتور محمود عزمي فألقى بحثاً عن « النظام العالمي الذي يعاون على تحقيق سلام دائم » ، واعد الاستاذ اسماعيل القباني بك محاضرة عن « مكافحة الجهل في كل مكان لتحقيق سلام دائم » ، وعقبه سعادة الدكتور علي توفيق شوشة باشا فتحدث عن مكافحة المرض في كل مكان لتحقيق سلام دائم » .

اما الدكتور محمد صلاح الدين بك – وهو كفاءة نادرة وحيوية مشتعلة – فقد اعد بحثاً عن المشكلات السياسية للطاقة الذرية كما اعد سعادة الاستاذ سابا حبشي باشا – وهو اديب عالم مفكر ممتاز – بحثاً عن « مكافحة الفقر في كل مكان لتحقيق سلام دائم » واشترك الاستاذان وهيب دوس بك ومنصور فهمي باشا في « رواق » عالجا فيه موضوع القوى الروحية كعامل في بناء السلام العالمي . وختمت هذه السلسلة الفريدة من المحاضرات ببحث ممتع للدكتور وندل كليلاند – المستشرق الاميركي الذائع الصيت – عن الطاقة الذرية وآثارها الاجتماعية .

فلما اكتملت لموضوع العصر الذري جوانبه وتآلفت اجزاؤه ، وبدت الصورة امام المستمع اولاً – ثم القارىء ثانياً – زاهية كاملة مجلوة . وفي عرفي ان المأخذ الوحيد الذي يؤخذ على كتاب « العصر الذري » الذي صدر متضمناً هذه السلسلة من المحاضرات ، هو ان بعض المتحدثين كان يجنح الى الانشاء بدل ان ينحو الى تقديم الحقائق والاسانيد ، وكان يعنى بالقشور الكلامية دون الجوهر المصفّى . ومن حسن الاتفاق ان هذا اللون الانشائي قليل في الكتاب ومرده الى الارتجال والاعتماد على وحي الساعة .

بقيت كلمة ثناء تسدى للدكتور كليلاند فهو صاحب فكرة اعداد هذه المحاضرات ، وهو صاحب فكرة نشرها في كتاب . وكلمة اطراء توجه الى الاستاذ حنا رزق مدير قسم الخدمة العامة ، لانه هو الذي حقق رغبة الدكتور كليلاند – سلفه – فطبع الكتاب وجعله في متناول اليد .

القاهرة — وديع فلسطين

جولة الأديب في شهر

النحت

فن جديد طارىء على العراق، ساقته ظروف سياسية على اثر الحرب العالمية الاولى غيرت الشيء الكثير من طبيعة البنية الاجتماعية فيه، مثله مثل جاراته من البلاد العربية والشرقية عموماً. بينما هو فن قديم متطاول الجذور في غور تاريخ هذا الوادي القديم، وحضاراته العريقة. وبين الجدة والقدم امد كبير عميق الغور، كأنه الهوة المخوفة، تفصلهما فصلاً يكاد يكون تاماً كاملاً، من الحكم الاسلامي الطويل ذي الاجيال السبعين.

بين الصور السومرية، والتماثيل الاكدية والآشورية، وبين رسوم معارض اليوم وقطعها المنحوتة، بون من الخلاف شاسع مديد فانك لتطالعك من رسوم الحضارات الاولى الى معان واخيلة غريبة عنك، تكاد تحسبها ذكريات اناس غيرك تقص عليك، لا تدرك منها الا ظاهرها المروي، والا ما يتزج بهذا الظاهر من قوة التعبير. وهي الى ذلك تعطيك صورة - قد تكون باهتة - عن مجتمع غريب متجهم، صامت غارق في الصمت.. ميت، وانك لتقرأ من خلال الالوان الحديثة، والخطوط الطريفة الكثيرة، والمواضيع المتعددة المألوفة وغير المألوفة مما تزخر به قطع الفن الحديث، ما يخالف الالوان والخطوط والمواضيع مما تجده بين رسوم الاولين الحائلة.. فرق هائل غريب، يجعلك تشك في كون هذين الشكلين من الفنون نموا في ارض واحدة، وبين قوم يتسلسلون اطواراً على التاريخ. فمن اين جاء هذا الفرق الكبير؟ اننا نجد في فن العمارة شبهاً كبيراً بين ما شاد السومريون والاكديون والاشوريون، وبين الذي شاد المناذرة القدماء، وبينهما وبين فن العصور الاسلامية المعماري، ونجد رسوم (السجاجيد) والفرش الفارسية، وما تغلغل منها في الحضارة الاسلامية، وعلى الاباريق والكؤوس من الصور ما يؤيد نظرية اتصال هذا العصر، بالعصور السومرية الاولى.. اما هذه الهوة العميقة الشاسعة فرجعها الى سيطرة الشريعة الاسلامية مدى قرون عديدة، تلك القرون التي تحول فيها الروح الغني مندفعاً في اتجاه خاص، هو ذلك الفن الذي

خالد الرحال

بقلم حسام الدين ناصي

☆

يأخذ اللغة كأداة للتعبير، فالشعر فن رائع راق، والنثر مثله، ولكنهما جزء من الفن وليسا الفن كله. فمن الشذوذ البعيد ان يكون من امة برمتها، بل امم غفيرة، هو ذلك الفن اللغوي كل هذا الدهر الطويل ولكنه الواقع وهكذا كان، ولا غرو، فالدين - الذي يسيطر على الحياة والبنية الاجتماعية بأسرها - شق طريقه بهذا الفن، واتخذ الصياغة اللغوية المعجزة، اداة تعبير له، يشق بها الطريق الى القلوب، حتى يفرض على الملايين تقديسها، وقدست، وعني على الرسم والنحت والتصوير الملون، فكان الميدان للشعر، وموسيقاه، والموسيقى، وللنثر وعلومه والرواية اي كان للغة القدح المعلى.

ولست اريد الاطالة فأتناول العمران، الذي راح يتدرع بضرورته فيظهر الواناً وافانين من الروعة الفنية على وجه البلاد شرقاً وغرباً، واتخذ من حياة الترف والبذخ كنفاً دافئاً يلجأ اليه فينمو ويترعرع خصباً غزيراً قوياً، ولكنه مع ذلك راح يضمحل متهالكاً، ويحول ويبهت خيره، بتأثير موجات الاضطهاد التي عصفت بالعالم الاسلامي، فانتزعت الترف الباذخ من حواضره الى الارض الخام، التي راحت بدورها تنمو وتشب حتى بلغت من الازدهار شأواً بعيداً. ولكنني اريد ان اقول ان هذا الفن لم يكن ليمهر الا عن تفكير محدود خاص، ثبتته طبقات ناعمة مترفة، مما يجعلنا نأخذه بطريقة عكسية تماماً. فندرسه على انه رمز لما كان من الظلم والاضطهاد والاستغلال، ودليلاً على التدهور والانحطاط الاجتماعي والاخلاقي في اشد فترات العصر الاسلامي قوة وجبروتاً، وابعدها باعاً في الرقي واليأس الشديد، ففن العمارة كفن خاص لا يظهر لنا الا في قصور وقلاع معدودة، لا يمكن ان يمثل الا صورة اجتماعية قياسها عكسي تماماً وعظمة الفن ونفاسته. بعكس الشعر الذي كان المصدر الوحيد لنا نكشف فيه عن الاوضاع الاجتماعية الفاسدة، والغبن المتفشي، ولولا ان لهذا الحديث كله صلة وثيقة بما نحن في صدده من هذه الدراسة الفنية للنحات خالد الرحال، لما عنينا بشيء منها، ولا بد من اهمالها في هذه الحالة، فهي خروج عن الموضوع او هي - على التعبير الصحيح - لغو لا غناء فيه.

فالفن العراقي الحديث، به ذلك القسط من الفن القديم،



تمثال «خالد الرحال» الذي صنعه لنفسه وهو في الرابعة عشرة من عمره

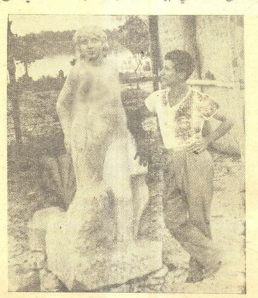
ذلك الاتجـاه المتزلف الذليل . بطبيعة تكوين المجتمع طبعاً ، والموهبة المنبثقة من صميم الجماهير ، قد تناضل وتنافح عن حقها في الحياة ، ولكنها مع ذلك تموت ، والاغلب ان تنقلب خادمة متملقة تتذلل ، وفي ذلك ما فيه عن فظاعة لا يدركها غير الفنان الاصيل .

ففن النحت الحديث اذن طارىء على العراق والبلاد العربية وطبيعته هذه تفسر انفصاله التام — من النـاحية التطورية — عن الفن العراقي القديم ، وقد اقتضت الظروف الطارئة التي تمخضت عنه ، ان يكون فناً جامداً لا روح فيه ولا حياة ، فالطبقة التي اخذت بيد القابض على الازميل ، هي هي تلك الطبقة التي كان يكدح لها الفنان كي ينشىء القصر الباذخ العريض ، ومع ذلك فعبقريات متصلبة عنيدة تدق بأرجلها الارض في اصرار وتعلن الثورة على هذا القيد المزري . ومن تلك عبقرية صاحبنا نصف المجنون ، خالد الرحال .

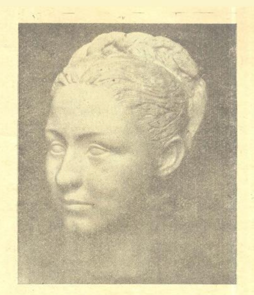
نشأ هذا والحياة كالحة في وجهه ، سوداء بعينيه ، بين جدران بيت كبير ، مغلقة ابوابه الضخمة السوداء على حزن دفين ، وآلام لا تني تتململ ، وتسم حياة ساكنيه . كانت امه تعيش مع وصيها الشيخ وأهله حياة كلها الالم ، تنطوي عليها وعلى ابنتها وابنها الغلام . هذا الغلام المتفتح للحياة ، في بيت لا أب فيه ، وام تقيم على حزن دائم مكبوت ، يحس هو بحزنها العميق ، وتتفتح عيناه لدى انه وامه وشقيقته مضطهدون بغير ما ذنب ارتكبوه .

دخل المدرسة وهو يشعر شعوراً قوياً بحاجته الى الحرية والانعتاق ، ليس من ضغط في البيت ، بل من هذا الشعور الحزين والالم العميق ، فكان في المدرسة تلميذاً اتعب مدرسيه بـ (شقاوته) ومشاكساته ، ففي المدرسة انطلقت حيويته جارفة قوية رائعة لا تعرف الهدوء ، فكان في شجار دائم مع اترابه ، وساعدته بنيته المتينة في التغلب على اقرانه والسيطرة عليهم ، واذكر انني رأيته لاول مرة وهو يقرب من خمسة عشر عاماً ، رأيته يمشي على حبل في الهواء !

كانت رغبته الشديدة في التحرر قد اتخذت لنفسها هذا المجال الحيوي اللاحب الملىء بالفخر والامجاد الصبيانية ، وبنت هذه الهواية العنيفة منه جسداً ضخم التقاطيع انيقاً ، متناسق العضلات جبارها ، فكأنما كانت تهيئه لحمل قطع المرمر الهائلة وتحطيمها بين يديه القويتين تماثيل كأنها الآلهة . وبالرغم من هذه النزعة التي كثيراً ما صرفت التلاميذ عن الدرس والتحصيل فقد راح صاحبنا ينجح وينجح ، قاطعاً المرحلة تلو المرحلة ، دون ما توقف او امهـال ، ليس لانه اهتم بالدرس والتحصيل ، فما بين مواد المدرسة ما يستحق الدرس والتحصيل غير مبادىء القراءة والكتابة ، ولكن لانه كان ينجح ، وقد يكون ذا فطنة فطرية — بل هذه ما اهلته لان يكون فناناً دقيق الملاحظة — وقد يكون ذا ولع بالاهتمام لمـا يلقى اليه لمجرد الرغبة في المشاكسة ، وعلى اية حـال فالامر لا ينفي انه لم يهتم بالدرس لمادته ، فقد رسب سنة واحدة ، عـام ١٩٤١ ، في السنة الثانية متوسط ، مرة واحدة فطلق المدرسة . كانت المدرسة لديه شيئاً جافاً ، اذا هي كانت قاعات درس وفصول قراءة ، وشيئاً حبيباً اذا هي كانت ساحات لعب ومجال حيوية ، وردهات رسم وعبث ، فقد بدأ صاحبنا رسـاماً ، وبلغ من ذلك مبلغاً طيباً ، وانتهى مثالاً ، ففي البيت الاول ، حجر طفولته ، كان الوصي الشيخ ،



« امرأة » من اعماله الحديثة



« رأس فتاة » من المرمر مثال كلاسيكي

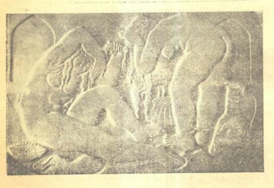
ذلك العسكري المتقاعد ، رساماً هاوياً ، يغرق حياته القاحلة بالنقش والتخطيط ، وكان الطفل يرقبه دائماً باهتمام ، ولا ينى يتساءل ويستفسر ، ولمجرد الرغبة في التسلية وقطع الوقت ، اخذ الشيخ باليد الصغيرة للطفل المتطلع واطبقها على الريشة ، ثم اطلقها على الورق المحبب ، وبذلك ، ومن غير علم منه ، رسم اول خط في تاريخ الفن العراقي الحديث .

كلف الطفل بالرسم كلفاً عظيماً ، كان مبعث اعتزاز للشيخ الفاني ، ومصدر فخار له . ولم تكن الام لترى في ما يصنع ابنها غير تسلية صبيانية ليست بذات خطر ، والا شيئاً قد يكلفها ابداء اعجابها به وبصانعه في بعض الاحيان ولم يطلق الطفل مع ذلك الرياضة البدنية ، حتى اخذه ابوه من احضان امه وبدأت عندذاك متاعب المراهق الثائر ، وبدأت الآلام تعصب القلب المتحرر الكبير .

كان كلما ازداد عنت الاب المتجبر ، ازداد اصرار الطفل المتطلع للحرية . وهذه الاسرة مشهورة بمزاجها العصبي ، ولم يكن الطفل ليقل عن ابيه قوة في الارادة . ولكن الاب يريد لابنه ما لا يريد هذا لنفسه ، والاب يؤمن يوماً بعد يوم ان ابنه (غير صالح) وانه لا خير فيه ، وبدأ الطفل يفكر بالانتحار ، ثم راح ينتحر يوماً بعد يوم دون جدوى فلم يستطع مرة اقناع عزرائيل بقيمة روحه واستحقاقها لان تقبض .

صنع تمثاله الاول في العاشرة من عمره ، مثل فيه الملك فيصل الاول ، وكان يؤمن بأن التماثيل لاتصنع الا للملوك ، فنحت للملك غازي الاول تماثيل عديدة ، حتى صنع تمثالي انا . ولاول مرة يكتشف ان التماثيل يمكن نحتها حتى ولو لم تك للملوك . صنع تمثالي في ساعتين . وجاء التمثال صورة طبق الاصل حتى لقد بهر امي ، وجعلها تشيح عن الرأس الطينية مستنكرة ، وتتعوذ بالله من الشيطان الرجيم .

دب الخلاف بين الاب والابن جدياً هذه المرة ، بعد رسوب الابن في فصله ، وعدم قدرته على الاستمرار في دراسته . وفي ثورة جامحة وضجة ضخمة ، انفصل الابن عن ابيه ومن اجل الكسب اشتغل في دار الآثار العراقية ، يصنع النسخ للتماثيل الآشورية والبابلية القديمة ، او يصلح فيها العطب . وبدأت مواهبه تصقل نفسها بالاحتكاك بين المذاهب الفنية في بغداد ، والمذاهب الفنية في بغداد تعني التقليد والروتينية الحكومية الجامدة ، ولولا ان في (معهد الفنون الجميلة) الحكومي قاعات للرسم وصلصال للتماثيل وآلات موسيقى ، لكان المعهد كتاب تلقين ، ومجال تجميد للعقول ، ولكن في المعهد مجالاً للعبقرية ان تهز ولكن لحسابها الخاص وعلى حساب ما يهيئه لها المعهد من وسائل اولية . فنانو بغداد متحذلقون متصنعون ، كأنهم الحلاقون ولكنه مع ذلك راح ينهل من بين ايديهم وافواههم معرفة جديدة يهضمها ويمثلها بطريقته الخاصة ، ويتنقل بين المذاهب الفنية العديدة ، (ما وراء الحقيقة) ، (الانطباعية) ، (والتكعيبية) ، وغيرها من هذه المذاهب التي يتناولها المتفننون في الصالونات التي لا يشترطون بها الا ان تكون ذات واجهات زجاجية ، والا ان تستوعب دخان (غلايينهم) الثقيلة الوزن . لم يفهم شيئاً من هذه الاشياء التي يتأثر بها ذوو الشعور الصقيلة ، ولكنه مع ذلك راح يبتكر لنفسه



« حمام بغدادي » من المرمر

الاجواء مستلهماً ما يريد ان يتخيله من معان لهذه المذاهب الجديدة

لكنه مذ بدأ ينحت لنفسه ، بدأ متحرراً من كل شيء ، وظهرت ميزاته الخاصة ، المعبرة عن اغوار نفسه تعبيراً شديد الوضوح ، فكان مذهبه الجديد في الفن . ذلك المذهب الذي لن يعبر عنه بالشرح والحديث والدراسة العلميـة ، ولن يفيه حقه من الوصف والتحليل لو انك سألته ، وطلبت اليه ان يريك خصائص قطعه الفنية ، فهو لا يفهم بقدر ما يستطيع ان يُفهم : يفهمك بفنه هو ، مثلك حيال قطعه ، يشعر شعوراً قوياً بأنها تعبر عن نفسه وذاته ، وقد تستطيع انت ان تحلل التمثال وان ترى السائل ما فيه من المواضيع الفنية ، والمواضع الحسية والتعابير الفكرية ، اما هو ، فليس يفعل حين يتصدى لشرح تماثيله الا ان يخيب رجاءك في فهمه ، ويهدم فكرتك عن نتاجه الفني . انه انسان يحس فيندفع باحساسه يعجن الطين ، ويشعر فينكب على الصخر ينحته بشعوره الذي لا يقـاوم . ومن ذلك كان مدرسة ومدرسة قد تكون جديدة .

ومدرسته هذه لا تختلف عن المذهب الفني القائل ان من خصائص الفن ان يضفي على الطبيعة جمالها المخبوء او المغيب بين الصور المبعثرة المتباعدة ، ولكنه مع ذلك — في هذه المدرسة — ينحو في الامر نحواً خاصاً ، فهو لا يريد اظهار الجمال المخبوء في الطبيعة ولا يريد خلق الانسجام خلقاً جديداً . بل هو يهدف من وراء ذلك الى تحقيق شعور مبهم يحسه ولا يفهمه جيداً . فأن فهمه فبصورة اشد ابهاماً وغموضاً ، مما يدفعه دائماً عن جمال الدرس والتحليل الى مجالات التطبيق الذي يشبه ان يكون فيها غير ارادي . واكثر ما يحقق من هذه الافكار الآسرة المبهمـة ، فكرة الجنس والغريزة فهو لا يصور الجسم كما هو ، ولا يختار يداً من هنا وساقاً من هناك ليأتي بجسد مثالي — بالرغم من ان له قطعاً قديمة تضعه في مصاف كبار النحاتين الكلاسيكيين — بل هو غالباً ما يشوه القطعة ، تشويهاً ظاهرياً ، هو في الحقيقة اقصى ما يتمناه البهيميون في الفراش : اجساد تصرخ بالشهوة العاتية ، جسوم ضخمة متهدلة اللحم تعوي في غضونها وبين ثنياتها المعتمة غريزة حيوانية تطلب الافلات من الاسر الثقيل الذي يكاد يكون سرمدياً . رغبات قذرة لا تبعث الا على الاندفاع لتحقيق ابشع ما يمكن تحقيقه من ارضاء الشهوة البهيمية لمجرد الثورة وهدم الاصنام ، للتحرر المطلق .

ففي الوقت الذي انصرف ذوو (الفلايين) الانيقة الفخمة الى تقليد المذاهب الطارئة دون فهم او تدقيق ، راح هذا يبني مجده الفني ، وكادت وظيفته في دار الآثار العراقية تجره الى تقليد الفن الآشوري — وله بعض قطع متأثرة بهذا الفن — لولا ان رغبته في التحرر من كل قيد ، نفضت عنه هذا الوهم سريعاً . وبالرغم من انه وجد نفسه مضطراً الى مجاراة المذاهب الاوربية الحديثة ، فأنه حقق هذا التقليد على طريقته الخاصة ، ولم يصنع تماثيله على اسس هذه المذاهب دون ان يكسبها الطابع المحلي العريق . فله من البرنز تمثال خالي الجوف مفتوح الصدر والبطن ؛ هو قشرة من البرنز تجسم ظهر امرأة تلبس العبـاءة ، وفي الفتحة الامامية — الصدر والبطن والساقين — وضع اسلاكاً دقيقة كأنما هذه المرأة قيثار . وله قطعة اخرى اسماها (سمك مسقوف[1]) ، ولكن سرعان ما طلق هذا العبث المموج ، واندفع من جديد في طريقه الغريب ، فهو يعبر تعبيراً قوياً واضحاً عن المواضيع المحلية الصرفة ، ولكن بطريقة خرقت العرف ، وقوضت العادات ، فليس يستحي او يخجل اذ يدخل وراء النساء ربات البيوت ، ذوات الجسوم الهادئة العريضة ، ذلك الهدوء المهيج المثير ، كأن في اهابه الساذج البليد ابليس الذي افسد أبانا آدم ، لا يخجل ان يدخل وراءهن الحمام ، فيبدي من اجسادهن المطمئنة في عريها المستقيم شهوة عارمة .

ومع ذلك ، وبالرغم من اعتراف اساتذة معهد الفنون الجميلة ، بعبقرية هذا (الطالب) ونبوغه ، فقد ابى المعهد منحه شهـادة التخرج ، لعدم حمله شهادة الدراسة الثانوية . ولكن ذلك لا يمنع ان تكون تماثيله قطعاً خالدة من الفن يقف امامها الاساتذة والنقـاد ذاهلين اعجاباً ، وقد حدث ان زار المسيو بوربون الفرنسي بغداد ، فاشترى منه تماثيل ، لم يدفع ثمنها حتى الآن على ما اعلم ؛ واعتزم نقلها الى باريس بالطائرة ، او هكذا يقول خالد بلهجته المتبـاهية الساذجة . ولعل الظروف تتيح لي ان اتناول طريقة خالد الرحـال الفنية بالبحث والتفصيل ، واكشف عن دقائق صنـاعته البديعة المبدعة في مقال آخر يفي بحق هذا الفنان الخالد .

« راقصة شرقية » من الابنوس

بغداد — حسام الدين ناصر

(١) سمك يشوى على النار بطريقة خاصة ، ويكثر صنع الناس له عندنا على الشواطيء وضفاف النهر في الليالي المقمرة الملاح .



٢٣ تشرين الثاني ١٩٤٨ – طلب الوفد الاسترالي الى هيئة الامم قبول اسرائيل في الهيئة واقترح انشاء لجنة للتوفيق واسعة الصلاحيات تساعد الفريقين للدخول بمفاوضات مباشرة .

٢٤ – تأجل قبول دولة اسرائيل المزعومة في منظمة الغذاء والزراعة التابعة لهيئة الامم .

٢٥ – قدمت بريطانيا الى اللجنة السياسية اقتراحاً جديداً معدلاً للتوفيق بين التقسيم ومشروع برنادوت .

٢٦ – اعلم بانش الوسيط الدولي، الدول العربية بان اليهود طلبوا رسمياً من مجلس الامن الدخول بمفاوضات مع العرب .

– قدم دولة فارس بك الخوري الى اللجنة السياسية اقتراحاً يوحي بتشكيل لجنة خماسية تدرس الحالة الفلسطينية في فلسطين وتكلف بانشاء دولة موحدة على اساس الكانتونات .

٢٧ – الشيوعيون على بعد ٥٥ كيلومتراً من عاصمة الصين القديمة .

٢٩ – رفضت اللجنة السياسية لهيئة الامم المشروع السوفياتي القاضي بسحب الجيوش الاجنبية من فلسطين باكثرية ٣٢ صوتاً .

٣٠ – عقد اتفاق بين العرب واليهود لايقاف النار في القدس .

– قامت المظاهرات الصاخبة في دمشق احتجاجاً على الحالة في فلسطين .

– قدمت بريطانيا للجنة السياسية اقتراحاً معدلاً لاقتراحها السابق لحل قضية فلسطين .

١ كانون الاول – استقالت الوزارة السورية على اثر الاضرابات والمظاهرات التي شملت انحاء العاصمة السورية .

– اعلنت اميركا عن قبولها للاقتراح البريطاني المعدل بشأن فلسطين .

– عقد مؤتمر فلسطيني في اريحا بويع فيه الملك عبدالله ملكاً على فلسطين والاردن .

٢ – احال مجلس الامن طلب اسرائيل للانتماء الى هيئة الامم المتحدة الى لجنة العضوية .

٣ – رفضت اللجنة السياسية لهيئة الامم ضم القسم العربي من فلسطين لشرقي الاردن وتقرر وضع القدس وبيت لحم تحت الرقابة الدولية .

– تأجل بحث طلب اسرائيل للانتماء الى هيئة الامم المتحدة .

٤ – قامت المظاهرات في القاهرة وقتل حكمدار البوليس .

– رفضت اللجنة السياسية المشروع الروسي لجلاء القوات الاجنبية عن فلسطين واقرت انشاء لجنة ثلاثية للتوفيق في فلسطين .

٦ – تجددت مظاهرات الطلبة والطالبات في القاهرة .

– لم ينجح الاتاسي بتأليف الوزارة السورية الجديدة .

٧ – بعد ان اعلن فخامة الاتاسي اخفاقه في تأليف الوزارة بسبب تنافس الاحزاب عهد رئيس الجمهورية الى الامير عادل ارسلان تأليف الوزارة .

٨ – تدل الظواهر على ان الامير عادل ارسلان لن ينجح بتأليف الوزارة السورية .

– حلت الحكومة المصرية حزب «الاخوان المسلمين» .

٩ – طلبت فرنسا وانكلترا والولايات المتحدة من العراق اعادة فتح انابيب البترول المتصلة بحيفا .

١٠ – تأجل اجتماع مجلس الامن لدرس طلب اسرائيل بالانتماء الى هيئة الامم .

– اعلن تشانغ كاي تشك الاحكام العرفية في جميع انحاء الصين .

١١ – كلف خالد العظم بتشكيل الوزارة السورية بعد اخفاق الامير عادل ارسلان .

– اختتمت الجمعية العامة دورتها في باريس .

١٣ – قرر البرلمان الاردني اعلان عبدالله ملكاً على الاردن وفلسطين بالرغم من معارضة الدول العربية جميعها .

– اقرت الجمعية العامة انشاء لجنة للتوفيق في فلسطين من تركيا وفرنسا واميركا .

١٤ – عادت روسيا الى مطالبة تركيا بضم اراضي ارمينيا التركية الى ارمينيا السوفياتية .

١٥ – قامت الثورة في سلفادور للحؤول دون تجديد رئاسة الجمهورية لكاستادو كاسترو .

– سقطت بكين العاصمة الصينية القديمة في ايدي الشيوعيين .

– اعلن العراق انه متضامن مع دول الجامعة العربية بشأن فلسطين .

– استطاع السيد خالد العظم ان يؤلف الوزارة السورية .

– اذاعت الحكومة الاندونيسية بلاغاً قالت فيه : ان التحكيم هو الحل الوحيد لحل النزاع بينها وبين هولندا .

– لم تدم ثورة سلفادور سوى عدة ساعات انتهت بسقوط رئيس الجمهورية .

– اعلن شرقي الاردن بانه لن ينسحب من الجامعة كما سرت بذلك الشائعات .

١٧ – طلب لبنان ومصر واليمن دعوة الجامعة العربية لبحث موقف شرقي الاردن بعد مقررات اريحا .

– رفض مجلس الامن طلب انتساب اسرائيل لعضوية منظمة الامم المتحدة .

١٨ – اذاعت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الصيني بياناً اكدت فيه ان كل تدخل اميركي لمساعدة تشانغ كاي شيك يعد عدواناً مسلحاً على اراضي الصين .

٢٠ – ردت المحكمة الاميركية العليا طلب استئناف مجرمي الحرب اليابانيين .

– شنت القوات الهولندية هجوماً مفاجئاً في الاراضي الاندونسية فاحتلت العاصمة، واعتقلت رئيس الجمهورية والوزراء والقائد العام للقوات الاندونيسية .

٢٣ – قدمت اميركا وسوريا وكولومبيا الى مجلس الامن مشروعاً لوقف القتال العاجل في اندونيسيا .

– نفذ حكم الاعدام بالجنرال توجو .

– شن اليهود هجوماً مفاجئاً على القوات المصرية في منطقة النقب .

– برئت ساحة وزير داخلية فيشي .

٢٤ – اعترفت كندا بدولة اسرائيل .

– امر مجلس الامن بايقاف النار باندونيسيا .

٢٥ – اطلق الهولنديون سراح الزعماء الاندونيسيين .

٢٧ – عقد مجلس الامن جلسة سرية قرر فيها انهاء عمله في باريس واستئنافها في ليك سكسس .

– نالت الوزارة السورية الثقة .

مطابع صادر ريحاني – تلفون ٦٨ – ٦٣